سلسلة الدراسات التاريخية 7

الإسلام في السودان

قبيل القرن السادس عشر الميلادي

د. عبد الرحمن إبراهيم سعيد علي

الطبعة الأولى - 2023م

القارىء الكريم:

سلسلة الدراسات التاريخية هي مجموعة من الدراسات والبحوث العلمية الرصينة الهادفة، عملت دار آريثيريا للنشر والتوزيع على تبنيها والاهتمام بها ونشرها بالشراكة مع مجلة القلزم للدراسات التوثيقية.. خدمةً للبحث العلمي في مجال الدراسات والبحوث التوثيقية.

القارئ الكريم:

تثمن دار آريثيريا للنشر والتوزيع المجهودات العلمية لجميع المفكرين والمختصين والباحثين من مختلف الدول العربية وخارجها، وتؤكد بأنها سوف تعمل بكل جد واجتهاد على توسيع قاعدة النشر العلمي وإتاحته عبر الدار وشركائها، لنشر البحوث التي تسهم في رفد المكتبة العربية والعالمية بالجديد المفيد.

القارئ الكريم:

العالم اليوم يؤمن بالعمل الجاد والبحوث العلمية الرصينة ذات المردود الإيجابي على الفرد والمجتمع، ومن خلال هذا المحور نعمل دائما - بحول الله تعالى - كي تكون الدار منبراً علمياً يشار إليه بالبنان. بإذنه تعالى.

دار آريثيريا للنشر والتوزيع
Arrythria for Publishing and Distribution

الاسلام في السودان قبيل القرن السادس عشر الميلادي

د. عبدالرحمن ابراهيم سعيد علي

قسم الآثار – جامعة الخرطوم

الطبعة الأولى 2023م

الكتاب :الاسلام في السودان قبيل القرن السادس عشر الميلادي
تاريخ النشر : الطبعة الأولى 2023م

التصميم والإخراج: علي عبد الحليم كابتود

حقوق النشر محفوظة للدار

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه، أو تخزينه كنسخة إلكترونية أو نقله بأي شكلٍ من الأشكال دون إذن خطي مسبق من المؤلف والدار.

إن دار إريثيريا للنشر والتوزيع غير مسؤولة عن أراء المؤلف وأفكاره، وتعبر الآراء والأفكار الواردة في هذا الكتاب عن وجهة نظر المؤلف ولا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر الدار.

دار آريثيريا للنشر والتوزيع
Arrythria for Publishing and Distribution

جوال : 00249910785855 - 00249121566207
arithriaforpublishing@gmail.com

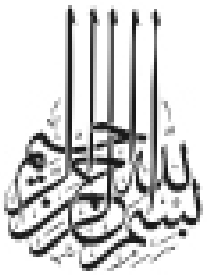

﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْآخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾

(آل عمران - 85)

مقدمـــــة

تعتـبر الفـترة مـن القـرن السـابع الميـلادي – بدايـة دخـول الاسـلام بـلاد السـودان – وحتـي قبيـل القـرن السـادس عـشر الميـلادي – قبـل قيـام دولـة الفونـج الاسـلامية – مـن الفـترات المهمـة في تاريـخ السـودان ، عـلي الرغـم مـن عـدم توفـر المصـادر والمراجـع ، والتـي أحسـب أنهـا تحتـاج لمزيـد مـن البحـث والتقـصي. كـما ويجـب الانتبـاه ولفـت نظـر الباحثـين والمهتمـين بالـتراث بالبحـث والغـوص في غياهـب تلكـم المرحلـة ، خاصـة مـن الناحيـة الآثاريـة ، والتـي أحسـب أنهـا وجـدت كثـير مـن الاهـمال والنسـيان بـل وحتـي الضيـاع ، ذلـك مـرده ضجيـج دولـة الفونـج ، ومملكـة الفـور الاسـلاميتين ، واللتـين كانتـا مسـيطرتين عـلي أجـزاء واسـعة مـن السـودان ، وبالتـالي أثـرت عـلي فكـر وعقـول مؤرخـي تلـك الفـترة (القـرن السـادس عـشر ومـا بعـده).

وكـما هـو معلـوم فقـد أصبـح السـودان كتابـا مفتوحـاً لعلـماء الآثـار بعـد المسـوحات الضخمـة التـي تبعـت تعليـة خـزان أسـوان الأولى ومـن بعدهـا إنشـاء السـد العـالي. وبالرغـم مـن أن هـذه الأبحـاث الكثـيرة قـد هدفـت بصـورة خاصـة لمعرفـة التاريـخ الثقـافي لمنطقـة النوبـة السـفلي إلا أن هنالـك إهـمال واضـح مـن قبـل البعثـات الاجنبيـة وحتـي كثـير مـن الباحثـين الوطنيـين لبعـض الفـترات خاصـة الفـترة الاسـلامية (القـرن السـابع الميـلادي وحتـي التاسـع عـشر الميـلادي) ، إلا أنهـا لفتـت الأنظـار إلى منطقـة النوبـة العليـا ومـا تحتويـه مـن آثـار.

وتعتـبر الفـترة الواقعـة مـا بـين القـرن السـابع الميـلادي وحتـي قبيـل القـرن السـادس عـشر الميـلادي مـن الفـترات الهامـة في تاريـخ وادي النيـل الأوسـط ، عـلي الرغـم مـن قلـة المصـادر. وقـد مـرت المنطقـة خـلال هـذه الفـترة بمتغـيرات ربمـا كانـت رئيسـية أثـرت بطبيعـة الحـال عـلي نوعيـة الأدلـة والمـواد الأثريـة. ومـن المعـروف بـان تلـك الفـترة شـملت قيـام ونشـؤ وازدهـار الممالـك المسـيحية الثلاثـة في بـلاد النوبـة وحتـي فـترات اضمحلالهـا ، اي فـترة العـصر الوسـيط في بـلاد النوبـة ، وخـلال تلـك الفـترة كانـت هنالـك هجـرات عربيـة ضخمـة الي بـلاد السـودان ، بالاضافـة الي نشـؤ وقيـام ممالـك اسـلامية صغـيرة في ظـل الممالـك المسـيحية هـذه ، مثـل السـكراب في منطقـة الشـلال الثالـث (المحـس) وامـارة العمـري الاسـلامية في منطقـة وادي العلاقـي.

الموقـــــع :

يقـع السـودان، هـذا البلـد المترامـي الأطـراف، بين خطـي عـرض 4° - 23° شـمالاً، وخطي طـول 22 38° شرقـاً. حيـث تصـل مسـاحته الي حـوالي مليـون ميـل مربـع وهـو مـن أكـبر دول القـارة الأفريقيـة (3.8% مـن مسـاحة أفريقيـا) (قبـل انفصـال دولـة جنـوب السـودان). يحـده مـن الشـمال جمهوريـة مـصر العربيـة وليبيـا، ومـن الجنـوب كينيـا ويوغنـدا والكنغـو وغربـا تشـاد وافريقيـا الوسـطي وشرقـا اثيوبيـا واريتريـا.

خريطة رقم (1)

موقع السودان (قبل الانفصال)

شـكل هـذا القطـر بمختلـف أقاليمـه وبتنـوع جغرافيـة قطاعاتـه وسـكانه، نموذجـا فريـدا للاثـار الاسـلامية في القـارة الافريقيـة، وعنـصراً مؤثـراً بدرجـة كبـيرة عـلى تطـور وتشـكيل ثقافـات وحضـارات وتـراث تلـك المناطـق، كـما تشـهد عليـه نظريـات تطـور ونشـؤ الحضـارات في العـالم القديـم والقـارة الأفريقيـة تحديـداً، كـما كان لحـوض النيـل والأنهـار المغذيـة لـه دوراً فاعـلاً في تشـكيل حيـاة سـكانه وثقافتهـم وحضارتهـم المميـزة.

البيئة الطبيعيــة والجيلوجيــا:

يمتلـك السـودان مناخـات متنوعـة وبالتـالي بيئـات مختلفـة، ويتميـز كذلـك بالمنـاخ المـداري، ولـذا يتـدرج مناخـه مـن المنـاخ الاسـتوائي في الجنـوب (قبـل الانفصـال) والسـافنا في الوسـط ثـم المنـاخ الصحـراوي في الشـمال، ومنطقـة البحـر الاحمـر في الـشرق والتـي تتميـز بمنـاخ البحـر الابيـض المتوسـط وبامطـار شـتوية.

وتهطـل أغلـب امطـار السـودان في فصـل الصيـف، وتتـدرج في مدتهـا وكميتهـا مـن الجنـوب الي الشـمال، وهنالـك أمطـار قليلـة في الشـتاء عـلي سـواحل البحـر الأحمـر الغربيـة.

وتتأثـر النباتـات الطبيعيـة في نوعهـا وحجمهـا بثـلاث عوامـل هـي الحـرارة والميـاه والتربـة. وليـس هنالـك مـا يعـوق نمـو النباتـات في السـودان في أي فصـل مـن فصـول السـنة. وهنالـك اختـلاف في نـوع النبـات يعتمـد عـلي العوامل الثلاثـة المذكـورة أعلاه (شـقير:1972).

ويبـدو مـن وصـف الكتـاب القدمـاء لهـذه البـلاد أنـه لم يطـرأ تغيـير ظاهـر عـلي بيئتهـا الطبيعيـة، عـدا بعـض الشـئ الـذي تناولـه الانسـان بالتعديـل أحيانـا وبالتهذيـب أحيانـا أخـري.

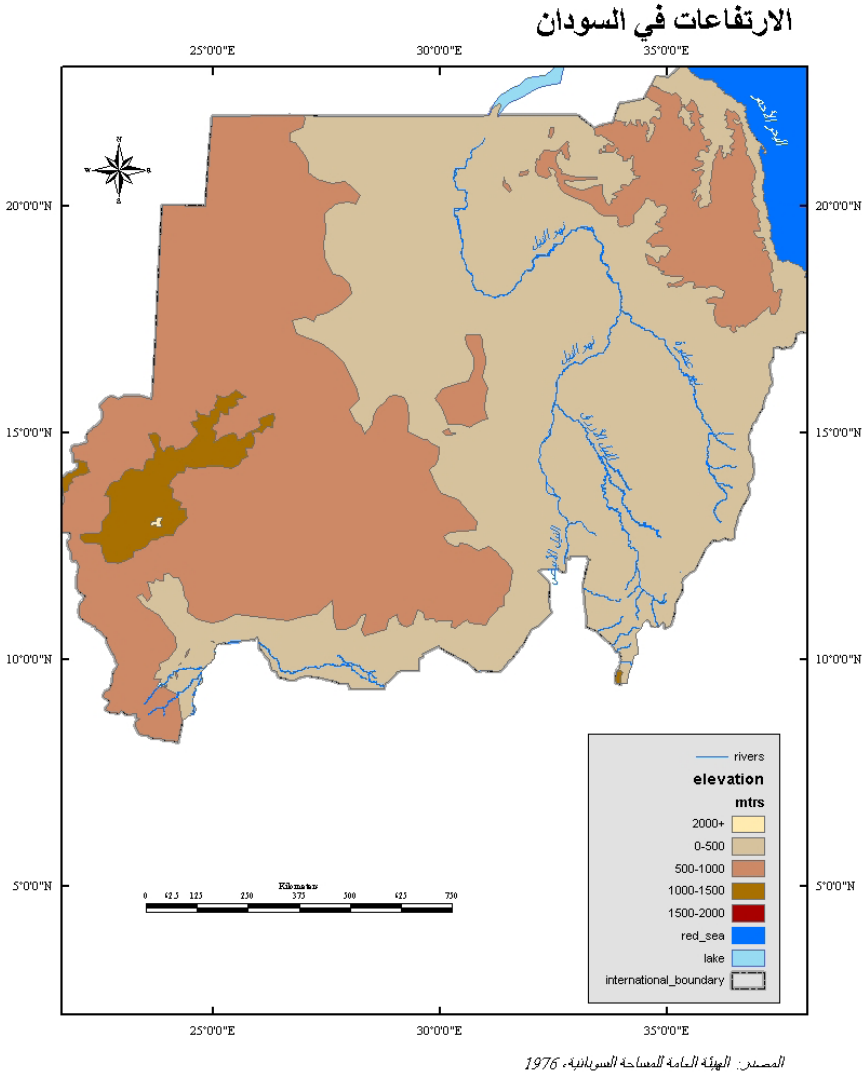

خريطة رقم (2)

الارتفاعات في السودان (قبل الانفصال)

التقسيمات الثقافية

نهر النيل وروافده:

يقصد بذلك النيل وما حوله من سهول ووديان، ولنهر النيل رافدان رئيسيان هما النيل الأزرق والذي ينبع من بحيرة تانا بالهضبة الاثيوبية وينحدر بسرعة الي سهل السودان ويصب فيه أولا نهر الدندر ثم نهر الرهد قبل أن يلتقي بالنيل الأبيض. والرافد الاخر وهو النيل الأبيض والذي ينبع من بحيرة فكتوريا ويجري في سهل منبسط بعد أن يصب فيه نهري السوباط وبحر الغزال، ويلتقي بالنيل الأزرق في منطقة الخرطوم.

بعد التقاء النيلين الأبيض والأزرق في الخرطوم يجري النيل في الصحراء حتي يصب في البحر الأبيض المتوسط، ولا يصب فيه فرع اخر سوي نهر عطبرة والذي ينحدر من مرتفعات اثيوبيا ويلتقي به عند مدينة عطبرة.

تعترض مجري النيل ما يعرف بالشلالات حيث يقطع النيل في هذا المسار مجراه في صخور ذات تكوينات جيلوجية متنوعة أهمها الحجر الرملي (Sand stone) والجرانيت، لذلك كثيرا ما تعترضه مثل تلك الشلالات وهي بالتتابع من الشمال الي الجنوب:

1. الشلال الأول: عند مدينة أسوان ويعرف بشلال أسوان.
2. الشلال الثاني: عند المدخل الجنوبي لوادي حلفا، وتقع جنوبه عدة جنادل أهمها شلال دال.
3. الشلال الثالث: بالقرب من كجبار ويعرف بشلال كجبار، كما يوجد جنوبه شلال تمبس شمال كرمة.
4. الشلال الرابع: بالقرب من كريمة.
5. الشلال الخامس: بين مدينتي أبوحمد والدامر.
6. الشلال السادس: بين شندي والخرطوم، ويعرف بشلال السبلوقة (Ad-ams:1977).

التقسيم الثقافي لنهر النيل:

يطلق علي المنطقة التي يشملها نهر النيل أي المنطقة شمال الخرطوم اسم منطقة النوبة (النيل الأوسط)، والي الجنوب منها تقع منطقة أواسط السودان. وفي أحيان أخري تقسم الي قسمين هما النوبة السفلي والنوبة العليا.

النوبة السفلي: بين الشلال الاول والثاني ومعظم أجزاؤها الان مغمورة تحت بحيرة ناصر والتي تكونت بعد انشاء السد العالي.

النوبة العليا: بين الشلال الثالث حتي الشلال الرابع، وتضم المنطقة الجنوبية من النوبة العليا منطقة وسط السودان، والتي تمتد من عطبرة حتي حوالي 100كلم جنوب الخرطوم، كما تضم منطقة البطانة والجزيرة.

وسط السودان: أحيانا يطلق لفظ وسط السودان علي المنطقة بين النيلين الأزرق والأبيض (الجزيرة) وشمال الخرطوم حتي الشلال الخامس. كما يطلق أيضا علي المنطقة من عطبرة شمالا وحتي 100كلم جنوب الخرطوم ويضم البطانة والجزيرة.

شرق السودان: ويقصد به شرق نهر النيل والمنطقة شمال وشرق النيل الأزرق، وتضم جبال البحر الأحمر ومنطقة كسلا والصحراء النوبية (الشرقية) والبطانة.

غرب السودان: يقصد به المنطقة غرب نهر النيل وغرب النيل الأبيض (كردفان - دارفور) وتنتشر فيه الصحاري والواحات والوديان.

جنوب السودان: يقصد به المنطقة التي تقع الي الجنوب من غرب السودان ووسطه وشرقه (أعالي النيل – بحر الغزال – الاستوائية) والتي تشكل الان ما يعرف بدولة جنوب السودان.

السكان:

كانت الأسماء التي تطلق علي السودان القديم دالة في بعض الاحيان علي نوعية السكان الذين استوطنوا فيه، كما أطلقت أسماء تدل علي الأرض التي عاشوا فيها.

وخلال فترات التاريخ المتغيرة، تعرضت البلاد – والتي كانت مسرحا لأحداث ذلك التاريخ – لهجرات متعددة، أدت الي تغيير في عناصر سكانها علي مر الزمن، لكنها طبعتهم بطابعها المميز، كما حافظت عن طريقهم علي عوامل ارثها الحضاري، بتوارثها وبتناقلها جيل عن جيل، مما أتاح لشعب وادي النيل القديم مكانه السامي والمرموق بين الأمم والشعوب القديمة (عوض:1956).

وبناءا علي ذلك حملت البلاد أسماء مختلفة في كثير من مراحلها التاريخية المتعاقبة، ففي التاريخ القديم كان التركيز علي الأجزاء التي سيطر عليها ملوك مصر، خاصة ملوك الأسر المصرية (القديمة – الوسيطة – الحديثة) وهي الحدود الجنوبية لمصر (لمملكتهم) والتي سيطرت عليها الممالك المصرية خلال الحملات التي قادوها، حيث كانت مستودع لبضائع كانت هذه الممالك المصرية في أمس الحاجة اليها خلال مسيرة تطورها وازدهارها (Trigger:1965).

والذي يميز هذه الأمة التي تقطن بلاد السودان هو سواد البشرة، وقد تناولها العرب بذلك المعني علي الرغم من اعتراض المدرسة الخلدونية لذلك، حيث تفترض أن

تكون معرفة الشعوب علي أساس الأنساب، وأن أهل السودان ينسبون الي حام الأسود. كما أنها أرست قواعد علم دراسة الشعوب (زين العابدين:1993:1994(.

من هذه الأسماء (خنت – حن – نفر) والتي أطلقها المصريين علي هذه البلاد ومعناها الأراضي الجنوبية (مسعد:1960: 7). أما لفظة اثيوبيا والتي استعملها الكتاب القدامي والأثريون المحدثون، وهي لفظة ينقصها الدقة، وقد كان السودان معروفا لدي الاغريق منذ القدم، وقد استخدموا لفظة اثيوبيا لتدل علي الأراضي الواقعة الي الجنوب من مصر، كما استخدمت اشارة الي لون البشرة (المحروقة او الداكنة) بمعني عام لتشمل معظم الافريقيين والاسيويين، أو بمعني علمي اشارة الي الملامح الزنجية. علي كل استعمال لفظة (اثيوبيا) لم يكن محدد ولا يشمل مجموعة عرقية بعينها، كما لم تطلق علي منطقة جغرافية محددة. ويبدو أن اسم (اثيوبيا) كان من اختراع الكتاب اليونانيين ويقصد به وطن الزنوج ولم يعرف لهذه المناطق حدود جغرافية واضحة (مسعد:المصدر السابق:9). كذلك (واوات) والذي اطلق علي المنطقة الممتدة من أسوان شمالا وحتي الشلال الثاني عند وادي حلفا (بكر:1998: 6). أما لفظة (تا ستي) والتي تعني أرض القوس، كناية علي مهارة وشجاعة النوبيين في استخدامهم للقوس، تشمل في الأسرة الثامنة عشر كل بلاد النوبة حتي الشلال الثاني. ولفظة (تا نحسيو) تحمل المعني الخاص بالزنوج (سليم:بدون تاريخ:80). وهنالك من يري أن النحسيو هم السكان الذين يقطنون منطقة الشلال الثالث وهم محس اليوم (علي عثمان:مقابلة شفاهية:2016). أما (كاش – كوش) لها عدة معاني لكن الواقع أن هذا الاسم قد أطلق فيما بعد علي كل البلاد التي كان يحكمها (ابن الملك صاحب كوش)، وقد أشار الي أن كوش علي وجه التقريب هي (اثيوبيا) في العهد اليوناني الروماني (سليم: المصدر السابق:79). كذلك لفظة (النوبة) والتي أخذت اسمها من أحد الشعوب التي كانت تقطن علي الضفة الغربية للنيل وهم النوبيون، ثم أصبح هذا الشعب فيما بعد سيدا عليها خاصة في فترة العصر الوسيط. علي كل تطلق لفظة (النوبة) في العصر الوسيط علي اجزاء كبيرة من وادي النيل الممتدة علي جانبي النهر العظيم بين مدينتي أسوان والخرطوم، بالاضافة الي مناطق من حوض النيل الأزرق والأتبرا حتي أطراف الحبشة، وأجزاء من أقاليم كردفان ودارفور غربا (فانتيني:21:1978). أما لفظة (الزنج) فاشارة الي اللون الأسود وهي مشتقة من الكلمة اللاتينية (Niger).

أما لفظة (بلاد السودان – أي بلاد السود) فقد أطلقها المؤرخين العرب علي البلاد الواقعة الي الجنوب من الصحراء الكبري (بكر:المصدر المذكور: 7).

وقد استخدم الكتاب المؤرخين والجغرافيين العرب القدامي ممن كتبوا عن مختلف عهود الاسلام لفظة السودان، ونجد أنهم استخدموها بنفس المعاني عند قدماء المصريين والاغريق وكذلك التوراة، يقول القزويني (جميع السودان من ولد كوش بن كنعان بن حام... وحكمة سوادهم لاحتراقهم بالشمس) وكان استخدام العرب لكلمة سودان بنفس المعني الاغريقي أي الوجه الذي أحرقته الشمس، ويقول الادريسي: (وهذه البلاد كثيرة الحر، حامية جدا ولذلك أهل هذا الاقليم لشدة الحر واحراق الشمس لهم كانت ألوانهم سوداء (خوجلي:2000: 54).

وقد أطلق اسم السودان علي أمة عظيمة من الناس اقسمت الي طوائف، ويطلق بلاد السودان علي المنطقة الممتدة من المحيط الأطلنطي غربا الي وادي النيل والبحر الأحمر حتي هضاب الحبشة شرقا، وأكثر دقة فانها المنطقة التي تقع بين دائرتي عرض 59-17 شمالا وبذلك أطلقت علي المنطقة الممتدة جنوب بلاد المغرب، جنوب مصر وشمال الغابات الاستوائية (الصديق:2005:76).

كما ذكر البكري في كتاب المسالك والممالك – كلمة سودان في القرن 5هـ – 11 م علي ذلك الجزء من غرب افريقيا، أما الجاحظ في كتاب فخر السودان علي البيضان، ذكر أن الاسم يطلق علي الجزء الواقع غرب افريقيا أيضا، فيما ذكر القلقشندي أن بلاد السودان يحدها من الغرب المحيط ومن الجنوب الخراب مما يلي خط الاستواء ومن الشرق بحر القلزم (البحر الأحمر) مما يقابل بلاد اليمن ومن الشمال براري تمتد ما بين مصر وبلاد عرب مغاربة من جنوب المغرب الي البحر المحيط، ويضيف القزويني في وصف بلاد السودان بأنها « أرض واسعة شمالا الي أرض البربر وجنوبها البراري وشرقها الحبشة وغربها المحيط، ثم تحدث عن «البيئة والطبيعة» (مسعد2: 283:1972). كما ذكر ابن خلدون بأن السودان أصناف وشعوب وقبائل أشهرهم بالمشرق الزنج، النوبة، الزغاوة، الكانم، ومن غربهم كوبو، التكرور ويتصلون بالبحر المحيط الي غينيا (مسعد2:المصدر السابق:276).

مما سبق نجد أن هؤلاء الرحالة العرب وعلي الرغم من اختلافهم في اختصاص كل رحلة لكنهم قد أجمعوا في حديثهم عن بلاد السودان الاتي:

1. أن مجتمعات بلاد السودان داكنة البشرة، قليلو المعرفة كما أنهم فئات، منهم المسلمون وأغلبهم علي المذهب المالكي، ثم المسيحيين وكفار لا دين لهم.
2. أن البلاد شاسعة وواسعة ولا يمكن تحديد أطرافها، ولهذا قالوا تمتد من البحر المحيط الي النيل.
3. أن الحرارة شديدة جدا لا يتحملها الانسان.

لكـن تناقضـت معلوماتهـم حـول سـكن هـؤلاء الأقـوام، منهـم مـن قـال في الأشـجار واخـر في سراديـب والبعـض يـري الأرض بهـا أشـجار واخـرون قاحلـة.

لا بـد مـن التطـرق الي اسـم الحبشـة، حيـث كان مرادفـا لاسـم السـودان عنـد الرحالـة العـرب، وقـد اطلـق عـلي بعـض الطوائـف التـي سـبق أن وصفـوا بأنهـم سـودان. ونجـد أن المسـعودي قـد رتـب الأقـوام التـي عـلي السـاحل الغـربي للبحـر الأحمـر حتـي سـاحل المحيـط الهنـدي لمـشرف افريقيـة بالصـورة التاليـة «بـلاد العلاقـي وبـلاد عيـذاب مـن أرض مـصر، وأرض البجـة ثـم الحبشـة، والسـودان الي أن يصـل أرض الزنـج، حيـث مـن الواضـح التميـز والفـارق بـين السـودان والزنـج، ويتضـح ذلـك أكـثر عنـد قولـه « ثـم يجتمـع المـاء جاريـا فيمـر برمـال هنالـك وجبـال ويخـترق أرض السـودان مـما يـلي بـلاد الزنـج» (مسـعد2:المصدر السـابق:48).

اللغـــــة :

نجـد أن في السـودان لغـات مختلفـة حسـب اختـلاف المجموعـات الجنسـية فيـه، ولا شـك أن هـذا الوضـع كان سـائدا فيـه منـذ أقـدم العصـور. ومـن الثابـت أن اقـدم الأخبـار والسـير عـن السـودان كان باللغـة المصريـة القديمـة (الهيروغلوفيـة)، حيـث احتـل المصريـين جـزءا مـن السـودان في عهـد الدولـة المصريـة الوسـطي، وأجـزاء واسـعة أخـري في عهـد المملكـة المصريـة الحديثـة. وبالرغـم مـن هـذا فـلا جـدال في أن اللغـة المصريـة لم تكـن لغـة الحديـث والـكلام. وبعـد اصطـدام الكوشـيون بالاشـوريين وتخليهـم عـن مـصر في أواسـط القـرن السـابع قبـل الميـلاد بـدأ يقـل تاثـير مـصر الثقـافي وانقطعـت الصلـة بهـا.

بعـد ذلـك ظهـرت وبفـترات ربمـا كانـت طويلـة، ظهـرت الكتابـة المرويـة والتـي تنسـب الي حضـارة مـروي بالبجراويـة والتـي كانـت عاصمـة للملكـة مـروي مـا بـين القـرن السـادس قبـل الميـلاد والقـرن الرابـع الميـلادي، والتـي كانـت تكتـب عـلي نهجـين، الهيروغلوفيـة المروية والديموطيقيـة المرويـة، تتكـون حروفهـا مـن ثلاثـة وعشريـن حرفـا منهـا أربعـة حـروف معتلـة وتسـعة عـشر حرفـا مـن الحـروف السـاكنة. أمـا عـن اللغـة نفسـها -فبـكل أسـف- لا نعـرف عنهـا الا القليـل، ولكـن هنالـك مـن الدراسـات الحديثـة والتـي ستسـاهم في فـك أو معرفـة كثـير مـن رموزهـا.

وبعـد أن أفـل نجـم مـروي حلـت اللغـة النوبيـة محـل اللغـة المرويـة في سـودان وادي النيـل، وهـي مـن اللغـات التـي معرفتنـا بهـا أقـوي وأمـتن مـن اللغـة المرويـة. وعنـد تدفـق القبائـل العربيـة عـلي السـودان الشـمالي وجـدوا اللغـة النوبيـة هـي السـائدة وسـط السـكان الأصليـين فـكان الـصراع بينهـا وبـين اللغـة العربيـة، وكان نتيجـة هـذا الـصراع أن احتلـت العربيـة معظـم مناطـق النوبـة واحتفظـت مناطـق أخـري بالنوبيـة الي جانـب العربيـة.

تقسيمات بلاد السودان:

من الأشياء التي لا بد من التطرق اليها تقسيمات بلاد السودان والتي كانت كالاتي:

1. السودان الغربي: ويمتد من حزام الغاب علي الساحل الي الصحراء، ويشمل أكثر الأقاليم التي سيطر عليها الفرنسيون في فترة الاستعمار، الا الشطر الشمالي من ساحل العاج وتوقو وداهومي، ويمتد أيضا من ساحل السنغال حتي حدود نيجيريا الشمالية، ونقطة ارتكازه هو حوض السنغال وحوض نهر النيجر الأعلي والأوسط.
2. السودان الأوسط: ويشمل وادي دارفور الي غرب وشرق بحيرة تشاد شمال نيجيريا، وهذه المنطقة بها تداخل مع السودان الشرقي.
3. السودان الشرقي: أو سودان وادي النيل، والذي يتكون من عدة ممالك ومشيخات، وهي مملكة الفونج وتسمي أيضا سنار، وسلطنتي كردفان (تقلي والمسبعات).

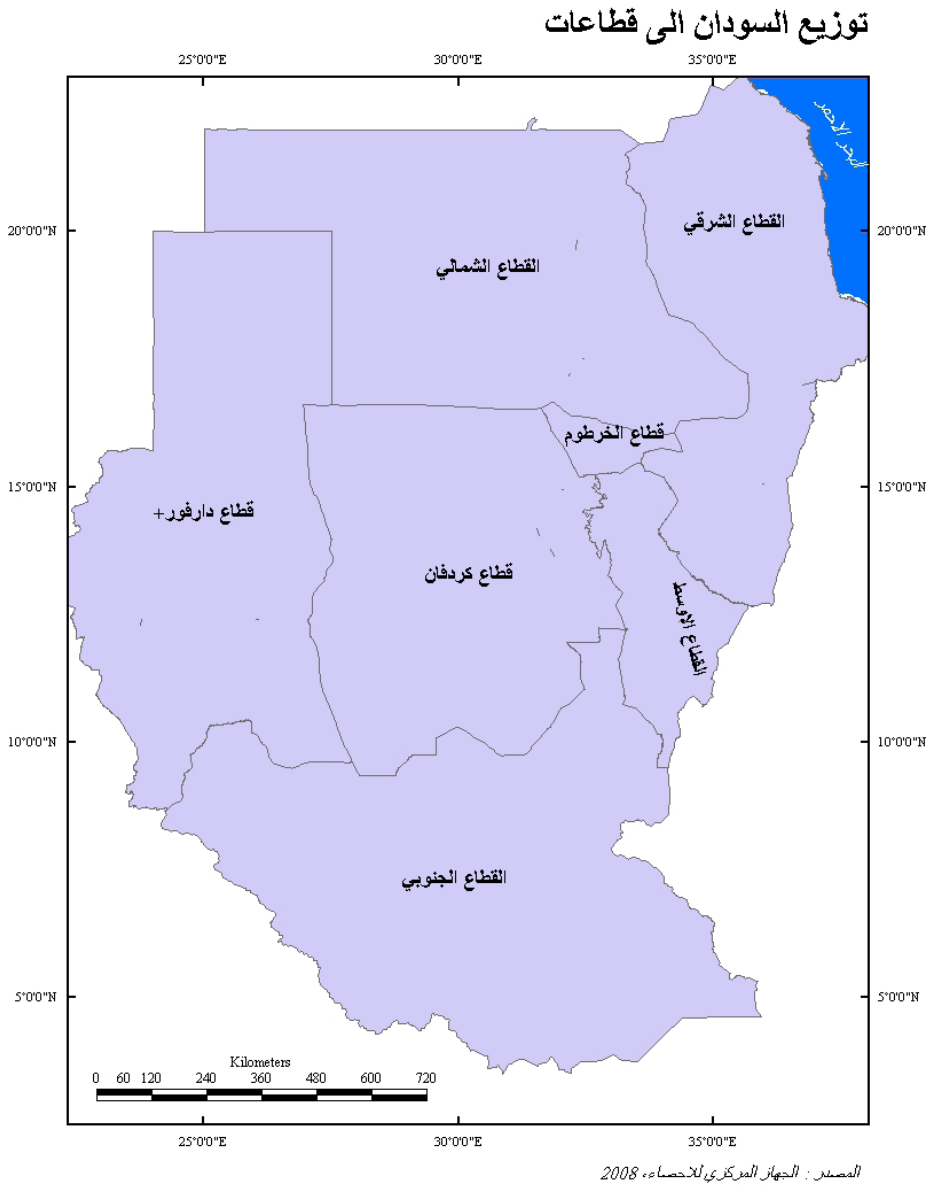

خريطة رقم (3)

قطاعات السودان (قبل الانفصال)

منهـــج الدراسة :

هـذه الدراسـة مـن الدراسـات الوصفيـة التحليليـة المقارنـة، والتـي تحـاول مناقشـة وتحليـل وتقويـم مشـكلة معينـة مـن خـلال جمـع المعلومـات بعـدة وسـائل ومـن ثـم دراسـة هـذه المعلومـات وعلاقتهـا بالظاهـرة موضـوع الدراسـة. ويشـمل المنهـج الحصـول عـلي معلومـات كمدخـل عـن فـترة الممالـك المسـيحية ودخـول العـرب بـلاد النوبـة ومـن ثـم دخـول وانتشـار الاسـلام والتعـرف عـلي النواحـي السياسـية والثقافيـة والاجتماعيـة والعسـكرية لهـا مـن خـلال النصـوص والدراسـات التاريخيـة والآثاريـة السـابقة، وكان اعتـمادي عـلي منهـج دراسـة الحالـة وذلـك مـن خـلال المسـح والتوثيـق لبعـض المواقـع الأثريـة وجمـع معلومـات كافيـة عنهـا (خاصـة مـن وجهـة النظـر الآثاريـة والتاريـخ الشـفاهي) ومـن ثـم دراسـتها وتحليلهـا واثبـات نسـبتها لتلـك الفـترة. ولطبيعـة الموضـوع التاريخـي فـان المنهـج التاريخـي كان هـو الأسـاس وذلـك لاكتشـاف الدلائـل وتحديدهـا ومـن ثـم الخـروج بملاحظـات واسـتنتاجات تتعلـق بالبحـث.

مصادر الدراسة :

نسـبة لغمـوض الموضـوع لقلـة المصـادر، كان لا بـد مـن القـاء الضـؤ عـلي تلـك المصـادر لهـذه الفـترة حتـي نلفـت انتبـاه الباحثـين والدارسـين المتخصصـين وغـير المتخصصـين مـن لديهـم اهتـمام بالـتراث بأهميـة تلـك الفـترة في تاريـخ السـودان، وهـي ليسـت دراسـة متخصصـة ولكنهـا اشـارات ومقدمـات عامـة عـن تلـك المصـادر، الهـدف منهـا محاولـة التعـرف عليهـا ودورهـا ومسـاهمتها في اماطـة اللثـام عـن تلـك الفـترة، حيـث معانـاة المكتبـات مـن نـدرة في كتـب الرحالـة والمؤرخـين والجغرافيـين العـرب وكتـب التاريـخ وكذلـك المخطوطـات، وحتـي تكتمـل المصـادر لدراسـة هـذه الفـترة كان لزامـا علينـا التحـدث ولـو بشـئ مـن الحـذر عـن مصدريـن نجـزم بأنهـما سـوف تكتمـل بهـما دراسـة تاريخنـا في السـودان، وهـما علـم الآثـار وطريـق الحـج الافريقـي وهـما مـن العلـوم أو المصـادر التـي وجـدت كثـير مـن الاهـمال والنسـيان بـل وحتـي عـدم المعرفـة مـن الكثيريـن بهـما. كل تلـك المصـادر مجتمعـة سـوف تسـهم وبصـورة كبـيرة في القـاء الضـؤ أو حتـي تكمـل مـا بدأتـه الدراسـات والبحـوث في التاريـخ السـياسي والثقـافي والاجتماعـي والحضـاري للسـودان، الا أنـه يجـب أخذهـا بشـئ مـن الحـذر والدقـة، فبالرغـم مـن أهميـة هـذه المصـادر الا أنهـا تحتـاج الي شـئ مـن الحـذر والتقـصي والبحـث والدراسـة كذلـك، الي جانـب أن بعـض الدراسـات التـي تناولـت تاريـخ هـذه الفـترة مـا زالـت حتـي الان في خطوطهـا العامـة التـي

أرساها المؤرخون الأوائل (المعتصم:5:2002)، ومن أقدم المصادر التي تحدثت عن هذا الموضوع هو ما نجده في:

1/ كتب الرحالة والمؤرخين والجغرافيين العرب الذين زاروا السودان في تلك الفترة:

شهدت هذه الفترة توفر قدر لا بأس به من المادة المكتوبة عن أحوال السودان في تلك المصادر العربية الخاصة بكتابات المؤرخين والرحالة العرب، والتي مكنت من التعرف علي بعض من أحواله قبل القرن السادس عشر الميلادي، فنجدهم قد اهتموا بتاريخ النوبة في العصر الوسيط منذ الحروبات الأولي بين النوبة والمسلمين في 641-652م بعد أن تم السيطرة علي مصر بواسطة العرب والمسلمين واستمر اهتمامهم بالنوبة حتي سقوط مملكتي المقرة وعلوة وتحول النوبيين الي الاسلام وعن الأوضاع السياسية في بلاد النوبة وعلاقتها بالخلافة الاسلامية في مصر، وفي هذا السياق نود أن نشير هنا الي المسلمين ووجودهم في بلاد النوبة في تلك الفترة، فنجد في كتاب البلدان لليعقوبي (284هـ – 897م) يقول: (.. فأما من قصد من العلاقي الي بلاد النوبة الذين يقال لهم علوة، فيسير ثلاثين مرحلة بعضها الي كباو، ثم موضع يقال له الأبواب، ثم الي مدينة علوة العظمي التي تسمي سوبة، وبها ينزل ملك علوة، والمسلمون يختلفون اليها..) (مسعد2: المصدر السابق:18).

ولعل أهم ما تضمنته هذه النصوص العربية الاشارة الي أمرين: أولها كثرة مناجم الذهب والزمرد التي تحويها أوطان البجة، وثانيها هجرة كثير من القبائل العربية الي أوطان البجة والعمل في مناجمها، وقد كان لبعض هذه القبائل صلات قبل الاسلام بالبجة وأوطانها، لكن الغالبية من هذه القبائل جاءت عقب ظهور الاسلام.، ومن ثم نلاحظ الدور الذي يمكن أن يلعبوه في نشر الاسلام وسط أوطان البجة.

ايضا ذكر اليعقوبي: (.. ومن العلاقي الي أرض البجة الذين يسمون الحدارية، والكذبين، خمس وعشرون مرحلة. ومدنية ملك البجة الحدارية يقال لها هجر، يأتيها الناس من المسلمين للتجارات..) و (.. ومن العلاقي الي أرض البجة الذين يقال لهم الزنافجة، يقال لهم بقلين، وربما صار المسلمون اليها للتجارات (مسعد2:المصدر السابق:19-20).

أما ابن حوقل (350هـ-961م) في كتاب صورة الأرض : (.. ودجن هذه قري متصلة ذوات مياه ومشاجر وزرع وضرع . والي وسط هذا الوادي تفلين قري أيضا للبادية منهم، ينتجعونها للمراعي حين المطر، ولهم ملك مسلم يتكلم بالعربية من قبل صاحب

علـوة. ويختـص أهـل تفلـين بالابـل والبقـر، ولا زرع لهـم، منهـم مسـلمون كثـيرون مـن غـير ناحيـة عـلي دينهـم، يتجـرون ويسـافرون الي مكـة وغيرهـا..) (مسـعد2:المصدر السـابق:74).

كذلـك ابـن سـليم الأسـواني (ت 386هـ-996م) في كتـاب أخبـار النوبـة والمقـرة وعلـوة والبجـة والنيـل : (.. ومنهـا الي الجنـادل الأولي، مـن بلـد النوبـة عـشر مراحـل، وهـي الناحيـة التـي يتـصرف فيهـا المسـلمون، ولهـم فيهـا قـرب أمـلاك، ويتجـرون في أعلاهـا وفيهـا جماعـة مـن المسـلمين قاطنـون لا يفصـح أحدهـم بالعربيـة..) (مسـعد2:المصدر السـابق:92).

المقصـود هنـا بالجنـادل الأولي: الأراضي النوبيـة جنـوبي حلفـا القديمـة، والمقصـود هنـا بالمسـلمون هـم النوبيـون الذيـن اعتنقـوا الاسـلام ولم يتعلمـوا العربيـة بـل ظلـوا محتفظـين بلغتهـم العربيـة.. والراجـح أن اعتناقهـم للاسـلام سـبق تعلمهـم العربيـة.

أيضـا ذكـر (.. وسـوبة مدينـة العلـوي شرقـي الجزيـرة الكـبري.. وفيهـا أبنيـة حسـان ودور واسـعة وكنائـس كثـيرة الذهـب وبسـاتين، ولهـا ربـض فيـه جماعـة مـن المسـلمين..) (مسـعد2:المصدر السـابق:102).

ونجـد نـاصر خـسرو (ت 481هـ-1088م) في سـفرنامه (.. ومدينـة عيـذاب هـذه تقـع عـلي شـاطئ البحـر وبهـا مسـجد جمعـة، وسـكانها خمسـمائة، وهـي تابعـة لسـلطان مصر..) (مسـعد2:المصدر السـابق:118).

أمـا الرحالـة المشـهور ابـن بطوطـة (ت 779هـ-1377م) في كتابـه تحفـة النظـار في غرائـب الأمصـار وعجائـب الأسـفار: (.. وبمدينـة عيـذاب مسـجد ينسـب للقسـطلاني، شـهير البركـة، رأيتـه وتبركـت بـه، وبهـا الشـيخ الصالـح مـوسي، والشـيخ المسـن محمـد المراكـشي، زعـم أنـه ابـن المرتـضي ملـك مراكـش، وأن سـنه خمـس وتسـعون سـنة ..) (مسـعد2:المصدر السـابق:254).

كذلـك المقريـزي (ت 845هـ-1445م) في كتـاب المواعـظ والاعتبـار بذكـر الخطـط والآثـار : (.. وجزيـرة سـواكن أقـل مـن ميـل في ميـل، وبينهـا وبـين البحـر الحبـشي بحـر قصـير يخـاض، وأهلهـا طائفـة مـن البجـة تسـمي الخاسـة، وهـم مسـلمون ولهـم فيهـا ملـك) (مسـعد2:المصدر السـابق:295).

والعمـري (ت 749هـ-1348م) في كتابـه مسـالك الأبصـار في ممالـك الأمصـار عن سـواكن: (.. وجزيـرة سـواكن ليـس بهـا مملكـة مشـهورة، ولا متاجـر مذكـورة، وكل أهلهـا مسـلمون قائمـون بالاسـلام..) (مسـعد2:المصدر السـابق:245).

كذلـك نجـد مـن الكتابـات الأخـري العربيـة ومـن كتـاب غـير عـرب مثـل أبي صالـح الارمنـي والمخطوطـات التـي كتبـت باللغـات العربيـة والنوبيـة والقبطيـة بالاضافـة الي وثائق

قـصر ابريـم والارشـيف العثـماني في القاهـرة وهـي حـوالي 122 وثيقـة تتنـاول قضايـا الأرض والـزواج والتغـيرات التـي حدثـت في بـلاد النوبـة ابـان انهيارهـا (Hinds & Hamdi:1986).

وغيرهـا مـن المصـادر الأخـري والتـي تناولـت تاريـخ تلـك الحقبـة (العـصر الوسـيط)، والتـي تعتـبر مـن المصـادر الأساسـية والمهمـة لدراسـة تلـك الفـترة والتـي لا يمكـن تجاهلها أو الغاؤهـا. ومـن أهـم مـا قيـل عـن تلكـم المصـادر (الكتـاب والمؤرخـين والجغرافيـين العـرب) والتـي خلـص اليهـا البروفيسـور يوسـف فضـل حسـن ضمـن نتائجـه عنهـا (.. وعـلي كل حـال فـان الأجـزاء الشـمالية مـن سـودان وادي النيـل خصوصـا بـلاد النوبـة وديـار البجـة كانتـا بشـكل أو باخـر تـدوران في فلـك الدولـة الاسـلامية اقتصاديـا وسياسـيا، وعليـه فليـس غريبـا أن يـتردد عليهـما الرحالـة أو يكتبـوا عنهـما مثـل مـا كتبـوا عـن بقيـة العـالم الاسـلامي. واذا كان الدافـع الأكـبر والرئيـس لهـذه الرحـلات دافعـا دينيـا يتمثـل في قصـد الأراضي المقدسـة أو غـيره فـان ذلـك لا يلغـي وجـود أهـداف اخـري متنوعـة شـكل بعضهـا أو كلهـا مجتمعـة حوافـز لـورود بـلاد النوبـة وديـار البجـة مثـل السـياحة والرغبـة في اكتشـاف أراضي والتعـرف عـلي أحوالهـا وأحـوال سـكانها كـما يتجـلي في شـكل واضـح في رحلـة ابـن جبـير ورحـلات ابـن بطوطـة، وكـما رأينـا فقـد أغـرت بعـض الدوافـع غـير الدينيـة ابـن سـليم الأسـواني فتوغـل جنوبـا حتـي بـلاد علـوة ووصـف حالهـا وأحوالهـا وطبائـع سـكانها وخـواص أهلهـا.

ويشـكل أدب الرحـلات الخـاص بسـودان وادي النيـل عـلي النحـو الـذي اسـتعرضناه مصـدرا ثـرا لدراسـة هـذه البـلاد لا غنـي عنـه لـكل طالـب معرفـة أو قاصـد علـم في مجـالات التاريـخ والاقتصـاد والاجتـماع والعمـران البـشري وحتـي دراسـة الفلكلـور والميثولوجيـا اذا لم تخـل تلـك الكتـب مـن ذكـر الأسـاطير والحكايـات الخرافيـة والمعتقـدات المحليـة لسـكان وادي النيـل. وأيـا كان موقفنـا مـن هـذه الكتابـات ورأينـا حـول مصداقيـة مؤلفيهـا مـن الرحالـة ونقدنـا لمنهجهـم في الكتابـة، اذ أن بعضهـم سرد مـا راه مـن الذاكـرة وبعـد مـضي أكـثر مـن عقـد مـن الزمـان كـما هـو الحـال في رحـلات ابـن بطوطـة، فـان هـذه الكتـب تشـكل المصـدر الأسـاسي لدراسـة تاريـخ سـودان وادي النيـل في العـصر الوسـيط).

2/ المصادر التاريخية:

أمـا المصـادر التاريخيـة التـي تتحـدث عـن تلـك الفـترة، وعـلي الرغـم مـن قلتهـا الا أنهـا سـاهمت وبصـورة فعالـة، مبـاشرة أو غـير مبـاشرة، في القـاء المزيـد مـن الضـؤ عـلي هـذه الفـترة قبـل القـرن السـادس عـشر الميـلادي.

ومـن أشـهر كتـب التاريـخ التـي تحدثـت عـن تلكـم الفـترة عـلي سـبيل المثـال لا الحـصر نجـد بروفيسـور يوسـف فضـل حسـن 1967م (The Arabs and the Sudan)،

1971م مقدمة في تاريخ الممالك الاسلامية في السودان الشرقي 1450-1821م الطبعة الأولي) (1975م دراسات في تاريخ السودان -1989م دراسات في تاريخ السودان وافريقيا وبلاد العرب). وابن خلدون (1967م كتاب العبر، وديوان المبتدأ والخبر). ادم الزين (1970م التراث الشعبي لقبيلة المسبعات). الشاطر بصيلي (1955م معالم تاريخ سودان وادي النيل). عبدالمجيد عابدين (1967م تاريخ الثقافة العربية في السودان). نعوم شقير (1967م جغرافية وتاريخ السودان القديم) . H.A. MacMichael, A History of the Arabs in the Sudan: 1922). مصطفي مسعد (1960م الاسلام والنوبة في العصور الوسطي) و (1972م المكتبة السودانية العربية) والدكتور أحمد الياس حسين (2012م السودان: الوعي بالذات وتأصيل الهوية، الجزء الثاني السكان حتي القرن الخامس عشر الميلادي) و (2012م السودان: الوعي بالذات وتأصيل الهوية، الجزء الأول سكان السودان حتي القرن السابع الميلادي، الجزء الثاني السكان حتي القرن الخامس عشر الميلادي أما الجزء الثالث علاقات السودان بالمسلمين في مصر بين القرنين 7-15م)، والدكتور عبدالرحمن ابراهيم سعيد (2017م – الآثار العثمانية في السودان من القرن ال16 وحتي القرن ال19)، والدكتور أحمد حسين عبدالرحمن (2017م – الامتداد السياسي والثقافي لدولة الفونج ما بين الشلالين الثالث والرابع) وغيرها من الكتب.

3/ المصادر الآثارية:

أما فيما يخص المصادر والبحوث في مجال الآثار فقد تمت عدة محاولات لفهم الثقافة المادية للاسلام. في المسوحات الآثارية التي تمت في الفترة ما بين 1907-1959م تم استبعاد المخلفات الاسلامية، عدا العالم (مونيرت دي فيلارد) قام بتسجيل بعض المساجد والمدافن أثناء بحثه عن الآثار المسيحية في منطقة النوبة السفلي. كما قام العالم الألماني (هنكل) بعمل أطلس للمواقع الاثرية الاسلامية المعروفة في السودان ولكن لم يتم اجراء أي بحث أثري فيها. أما في مجال الأوراق البحثية في هذا المجال نجد اركل (1937م) و(1946)، وعثمان (1982م) و ادامز (1987م)، الي جانب الاسهامات الاثنوغرافية في مجلة السودان وقائع ومدونات (Sudan Notes & Records).

بعد ذلك ظهرت بعضا من اهتمامات طلاب الآثار ضمن مشروعات التخرج لنيل درجة البكلاريوس مرتبة الشرف في قسم – الآثار – جامعة الخرطوم، فكانت المسوحات الأثرية التي تمت بواسطة هاشم السنجك (1978: قري)، كمال يونس (1979: عين فرح)، الفاتح حسين (1979: أبو حراز)، الطيب خليفة (1979: أربجي)، انتصار صغيرون (1982: سنار). كما نجد رسائل الماجستير والدكتوراة ، ابراهيم موسي (1986: دارفور)،

اتصار صغيرون (1987: القباب في وسط السودان) و (2000: الآثار الاسلامية في السودان)، عبدالرحمن ابراهيم (2005: الآثار العثمانية في السودان)، أحمد حسين (2005: الامتداد السياسي والثقافي لدولة الفونج بين الشلالين الرابع والثالث)، محمد فتح الرحمن (2014: الآثار الاسلامية في منطقة الشلال الرابع)، هالة ساتي (2016: الثقافة المادية للطرق الصوفية – دراسة حالة مسيد طيبة الشيخ عبدالباقي)، هناء عبدالجبار (2016: الفخار الاسلامي – دراسة مقارنة بين سواكن، سنار والخندق).. وغيرها من البحوث والدراسات.

في مجال الحفريات الآثارية نجد ادامز (1994-1999م في كلوبنارتي)، وكاستيليوني وكريم الصدر (1994-1998م في وادي العلاقي)، جون الكسندر (1997م قصر ابريم وجزيرة صاي).

في الاونة الأخيرة نجد قيام عدة مشاريع علمية بحثية ساهمت وبقدر كبير في اثراء الآثار الاسلامية في السودان منها مشروع المسح الآثاري والتراثي لمنطقة المحس بقيادة بروفيسور علي عثمان محمد صالح، ومشروع المسح الآثاري والتراثي لاقليم غرب دنقلا تحت ادارة بروفيسور انتصار صغيرون الزين، كذلك المسح الآثاري والبيئي والاثنوغرافي لمنخفض القعب برئاسة بروفيسور. يحي فضل، ومشروع المسح الآثاري والتراثي لشمال كردفان بقيادة د. هويدا محمد، ومشروع سواكن والبحر الأحمر بقيادة د. أحمد حسين، ومشروع المسح الآثاري والتراثي لاقليم شمال المحس بقيادة د. عبدالرحمن ابراهيم، كل هذه المشاريع تابعة فقط لقسم الآثار جامعة الخرطوم وأنشأت قبل عدة سنوات وما زالت تعمل حتي الان، ومن ضمن أعمال هذه المشاريع نجد الحفريات الآثارية، والتي نعتبرها مكملة لأعمال المسح الآثاري مثل حفريات الخندق ومدينة نوري وموقع كدموسا في المحس.. الخ. وهنالك عدة مشاريع أخري تابعة للهيئة العامة للاثار والمتاحف ولأقسام الآثار المختلفة في السودان تعتبر الآثار الاسلامية من أولويات أعمالها.

يتضح من هذا السرد أن حالة البحث في مجال الآثار الاسلامية عموما ما زال في البدايات، وأن النظرة للاثار الاسلامية كمباني وعمائر فخمة وأدوات فنية رائعة الجمال كان لها أثرها الكارثي علي تطور وازدهار هذا العلم. لكن الان نجد أن هنالك بداية لحركة أن تجد الآثار الاسلامية مكانتها بين باقي التخصصات الأخري، وأن تسهم هذه البحوث والدراسات في اثراء الساحة الآثارية بصفة عامة والآثار الاسلامية علي وجه الخصوص.

4/ طريق الحج الافريقي:

من المعروف أن طريق الحج بدأ حال دخول الاسلام ممالك غرب افريقيا، وهو متصل بعاملين أساسيين: الأول: رغبة المسلمين (الحجاج) بزيارة بيت الله الحرام وقبر الرسول (ص)، فغاية أمنية كل مسلم في غرب افريقيا أن يصل الارأضي المقدسة ولو مرة واحدة قبل مفارقته الدنيا. الثاني: قيام ممالك غرب افريقيا علي نظرية الرجل الغريب الذي جاء من الشرق.

ومنذ دخول الاسلام وانتشاره وسط الممالك الافريقية الغربية، دأب مسلموها علي ركوب الصعاب وارتياد عدد من الطرق التي تؤدي الي بيت الله الحرام للوصول الي هناك لأداء شعائر الحج، ذلك اما عبر الصحراء الكبري عن طريق فزان الي مصر ثم الحجاز، أو عن طريق المحيط الأطلسي عبر بلاد المغرب ثم الي مصر ومنها الي الحجاز، وطريق اخر عبر حزام السافنا الي بلاد الهوسا وتشاد والسودان ومنها الي الأراضي المقدسة (أبومنقة:1:2006).

وهنالك عدد من الطرق القارية التي تربط دارفور وممالك غرب افريقيا وتمر بمدن مثل مدينة أوري في غرب السودان والتي كانت تمثل حلقة وصل لحجاج غرب افريقيا وتربطهم بموانئ وصوع وعيذاب وسواكن ومنها الي جدة والأراضي المقدسة، وعبر هذه الطرق والموانئ كان سلاطين دارفور يرسلون المحمل والذي يحمل كسوة الكعبة التي عرفت «بصرة الحرمين الشريفين»، والتي تشمل نفائس دارفور من سن فيل وريش نعام وعسل وصمغ يباع في مصر وتحول قيمتها لكسوة الكعبة الشريفة. ويعتبر درب الأربعين من أهم طرق القوافل، والذي يأتي من غرب وجنوب غرب وشمال غرب افريقيا، ويمر بمدينة أوري والفاشر (عاصمة الفور) ومنها الي سنار وكسلا حتي موانئ عيذاب وباضع وسواكن ومنها عبر البحر الأحمر الي أرض الحجاز واليمن. بينما يواصل طريق القوافل البري الاخر شمالا مارا بواحة سليمة والنخيلة حتي مصر. طريق اخر يبدأ من دراوة بمصر الي أبوحمد، شندي، سنار، كسلا حتي سواكن بهدف التجارة. ومن الطرق الأخري التي ساهمت وساعدت علي ازدهار مدينة الفاشر الطريق الذي تسير به القوافل من طرابلس بليبيا ومدينة الكفرة ومدن الواحات مارا بمنطقة العوينات ثم تسير القوافل حتي مدينة مليط والفاشر وتواصل السير الي دنقلا ووادي حلفا وأسوان بمصر بينما يتجه طريق اخر عبر مدن سنار، كسلا، سواكن وعيذاب الي أرض الحجاز لنقل الحجاج من دارفور والدول الافريقية الأخري وللتبادل التجاري (حسين:2006: 6).

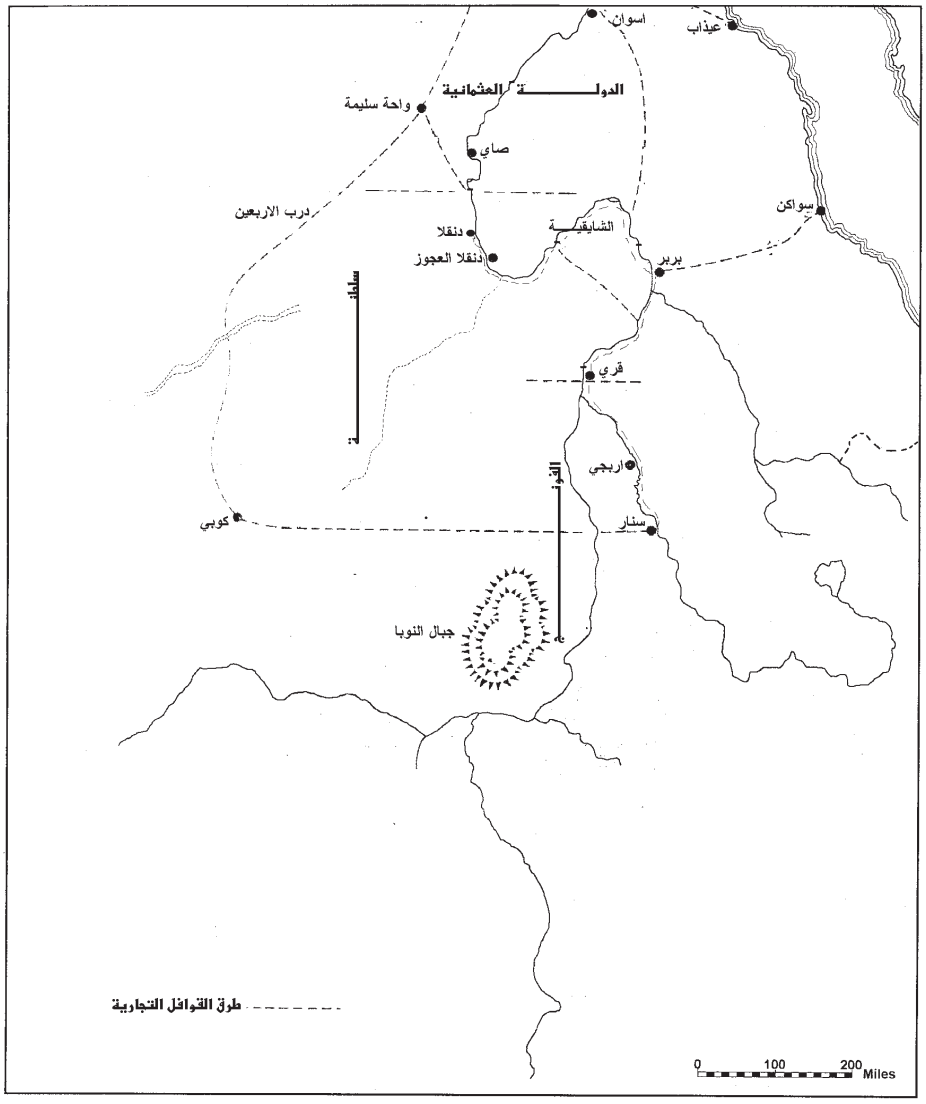

خريطة رقم (4)
اهم الطـــــرق التجاريـــــة

كانت هنالك دوافع أخري في اطار ما يمكن الاشارة اليه بعبارة (ما وراء الحج)، علي الرغم من أن كل من عقد العزم للاتجاه نحو الشرق كان بنية الحج، اذ لم يكن السفر الي الحج في بعض الأحيان لأداء الفريضة في حد ذاتها بقدر ما كانت لدوافع أخري مثل طلب المغفرة عن ذنب أو عدم رضاء العلماء والمسلمين عن مجريات الأحداث في بلادهم أو تهيئة النفس للجهاد أو لخلاف بين الراعي والرعية وغيرها حتي يتم التوجه لمكة (ابومنقة:المصدر السابق:2-12).

الأهمية الأثارية والثقافية لطريق الحج:

1/ المدن والقري الكبيرة الاستيطانية التي يمر بها الطريق.

2/ الروايات التاريخية في أدب الرحالة والجغرافيين العرب.

3/ الروايات الشفاهية عن طريق الحج.

4/ الدراسات في الثقافة المادية التي كان يستعملها ويحملها الحاج.

5/ الحراك السكاني الكبير (سنار مثلا بالكاد مدينة قاطنيها من غرب افريقيا).

ومن أميز التأثيرات الثقافية لطرق الحج هو الحراك السكاني الكبير علي الشريط الصحراوي في افريقيا من المحيط الهادي مرورا بالنيل وحتي البحر الأحمر، وهذا الحراك انتقال ثقافي (ثقافة مادية وغير مادية – عادات وتقاليد واسلوب حياة ولغات وممارسات وطقوس ..الخ) بالاضافة الي نوع الثقافة التي كان يحملها الحاج. وهذا خلق ما يمكن تسميته» ثقافة طريق الحج» من اكرا الي مكة، وميزة هذا الحراك هو حراك مستمر لم يتوقف حتي اليوم، مع تحديث كبير لمواصلات الحج (علي عثمان: مقابلة شفاهية:2015).

وكما هو معلوم أن مفهوم «الحج بمشقة» وطول الطريق مع وعورته كل ذلك كان ينتهي ببعض الحجاج الي الاستقرار الدائم في الطريق، في سودان وادي النيل علي وجه الخصوص (النيل – الأراضي الزراعية – وحسن معاملة السودانيين) ومع مرور الزمن انصهرت أعداد كبيرة من هؤلاء الحجاج في المجتمعات السودانية وشكلت النسيج السكاني الذي نراه اليوم، وصار هنالك هوية افريقية مرتبطة مباشرة بطريق الحج. وهنالك تحول في الثقافة المادية ويمكن أن نتحدث عن تراث (الثقافة المادية لطريق الحج) (علي عثمان:2006: 7). كما نجد أن هنالك حراك ديني وهو استقرار عدد من العلماء في حضرة السلاطين (الفور والفونج)، واستقرارهم كذلك لدي شيوخ القبيلة أو القري (بدايتهم بالوعظ والارشاد ثم الزواج فالاستقرار).

نجـد أن أهـم مـا ترتـب عـلي رحـلات الحـج عـبر سـودان وادي النيـل هـو وفـود عنـاصر بشريـة جديـدة جـاءت بلغاتهـا وثقافاتهـا وأعرافهـا وتقاليدهـا ... الـخ واندماجهـا في المجتمعـات المحليـة (التـزاوج – التـماذج – الانصهـار) وشـكلت النسـيج السـكاني الـذي نـراه اليـوم.. كـما وأسـهمت في اثـراء الخريطـة اللغويـة السـودانية بكـبري لغـات الأمـم الاسـلامية في افريقيـا، وأسـهمت كذلـك في تطويـر الاقتصـاد السـوداني (الزراعـة) (أبومنقة:المصـدر السـابق:23).

العمـل السـوداني الأقـدم مـن أعـمال بـادرة الحـج الافريقـي هـو كتـاب الدكتـور عمـر النقـر الـذي أعـد رسـالة الدكتـوراة في التاريـخ الافريقـي بعنـوان:School Oriental and African Study) مـن جامعـة لنـدن وغيرهـا مـن الأعـمال.

اثاريـا وحتـي الان تمـت دراسـة ببعـض مـن التفصيـل للمـدن حـول بحـيرة تشـاد (شرق وشـمال شرق البحـيرة) في رسـالة للدكتـوراة لطالـب تشـادي (ادريـس مـوسي أبـا – قسـم الآثـار – جامعـة الخرطـوم 2015م)، كـما وهنالـك دراسـات تاريخيـة مهمـة عـن طريـق الحـج الافريقـي اسـتخلصت مـن رحـلات وأدب الرحالـة والجغرافيـين العـرب، وهنالـك أيضـا دراسـات أخـري مهمـة في تنظيـمات المجتمـع المـدني في السـودان ضمـن أعـمال اللجنـة الوطنيـة لليونسـكو حيـث تـم تأسـيس مـشروع طريـق الحـج الافريقـي والـذي سـوف يـري النـور قريبـا بـاذن اللـه.

كل تلـك الأعـمال سـتلقي مزيـدا مـن الضـؤ عـلي تاريـخ دخـول وانتشـار الاسـلام في بـلاد السودان.

5/ الروايات الشفاهية:

تمثـل الروايـات الشـفاهية مكانـا خاصـا بـين أنـواع المصـادر التاريخيـة المختلفـة، ومـع ذلـك لم يبـذل غـير قليـل مـن الجهـد لتحليـل ملامحهـا الخاصـة باعتبارهـا وثائـق تاريخيـة. وهـذا الي حـد كبـير هـو مـا يثـير الدهشـة نظـرا لأنهـا اسـتخدمت باسـتمرار مصـدرا للـمادة التاريخيـة، ليـس لأن الروايـات الشـفاهية أكـثر المصـادر أهميـة بالنسـبة لتاريـخ الشـعوب التـي لا كتابـات لهـا فحسـب، بـل لأنهـا عرفـت أيضـا بأنهـا أسـاس كثـير مـن المصـادر المكتوبـة وبخاصـة مصـادر الآثـار القديمـة وبدايـات العصـور الوسـطي (فانسـينا:81:1981).

والروايـات الشـفاهية مصـادر تاريخيـة ذات طبيعـة خاصـة، وهـذه الطبيعـة الخاصـة مسـتمدة مـن أنهـا مصـادر غـير مكتوبـة مصوغـة في شـكل يلائـم الانتقـال الشـفاهي، وأن معظمهـا يعتمـد عـلي قـوي الذاكـرة التـي تتمتـع بهـا الأجيـال المتعاقبـة للجنـس البـشري. ومـن الملاحـظ أن تلـك الروايـات الشـفاهية تمثـل في الأماكـن التـي يعيـش فيهـا أنـاس لم

يعرفـوا الكتابـة المصـدر الأسـاسي والمتيـسر لبنـاء فكـرة عـن المـاضي، وحتـي بـين هـؤلاء الذيـن عرفـوا الكتابـة، فـان عـددا مـن المصـادر التاريخيـة بمـا في ذلـك أقـدم المصـادر، تعتمـد عـلي الروايـات الشـفاهية (المأثـورات)، ولذلـك فليـس هنالـك مـن شـك في أنـه يوجـد مـبرر للمطالبـة بالاسـتفادة العمليـة مـن الأبحـاث التـي تمـت عـن الخصائـص العلميـة للماثـورات الشـفاهية والأسـاليب التـي اتبعـت في اختبـار درجـة الثقـة بهـا أو جدارتهـا بالثقـة، ومـن مشـاكلها هـي عمليـة التحريفـات والتـي تجعـل المأثـورات عديمـة القيمـة (فانسـينا:المصدر السـابق:84-87).

ويـري (أوليفـر) أن المأثـورات الشـفاهية جديـرة بالبحـث في أحـوال كثـيرة، وأنهـا لا تتأثـر بالوظائـف التـي تحققهـا الي درجـة تفقدهـا كل قيمـة كمصـدر تاريخـي، ولكـن قيمتهـا التاريخيـة يمكـن أن يحكـم عليهـا فقـط بمقارنتهـا بشـاهد أثـري قـد يؤيدهـا أو يدحضهـا (Oliver:1955:23).

كـما يمكـن للمأثـورات الشـفاهية أن تكـون ذات قيمـة حقيقيـة، ولكـن الشـك سـيظل حولهـا مـا لم تدعـم بمصـادر تاريخيـة أخـري. عـلي كل تعـد الروايـات الشـفاهية روايـات منقولـة متعلقـة بالمـاضي.

وقـد أشـار محمـد مصطفـي بـأن هنالـك الكثـير مـن المؤرخـين السـودانيين لم يتعاملـوا أو يحسـنوا مـن التعامـل مـع الروايـات الشـفاهية عـلي أسـاس أنهـا مصـدر تاريخـي، فهـم امـا رفضـوا الاعتـماد عليهـا، أو أنهـم اعتمدوهـا دون تحقيـق عندمـا تفـرض نفسـها عليهـم (محمـد:2015: 53). ويـري أنـه عـلي الرغـم مـن تعـدد الكتابـات النظريـة والمنهجيـة والتـي ناقشـت المدلـول والقيمـة مـن الناحيـة التاريخيـة للروايـات الشـفاهية، لكـن بطبيعـة الحـال لـن تكـون هـذه الملاحظـات ممكنـة مـا لم يتـم اسـنادها عـلي نقطـة جوهريـة ومشـتركة كذلـك بـين كاتـب النـص وقارئـه نظريـا، وهـي ضرورة الاعتـماد عـلي هـذا المصـدر الشـفاهي في التاريـخ للمجتمـع السـوداني.

ومـن أكـثر الروايـات الشـفاهية تـداولا بـين النـاس عامـة وأهـل الاختصـاص عـلي وجـه الخصـوص، والتـي أرخـت لجـزء كبـير مـن السـودان، والـذي سـماه مؤلفـه ب «الطبقـات في خصـوص الأوليـاء والصالحـين والعلـماء والشـعراء في السـودان، كـما دون فيـه – عـلي حـد تعبـيره – مـا شـاهد وسـمع وسـجل بعـض مـا سـمعه ممـن شـاهد أو سـمع أو تواتـر ذكـره عنـد النـاس. كـما واسـتمر تـداول ووجـود الروايـات الشـفاهية كمصـدر مهـم مـن مصـادر تاريـخ الكتابـات السـودانية.

وهنالـك عـدد مـن الكتـاب السـودانيين اعتمـدوا في كتاباتهـم عـلي الروايـات الشـفاهية

مثل محمد عبدالرحيم (نفثات اليراع في الأدب والتاريخ والاجتماع) ومحمد صالح ضرار (قبائل البجه) والفكي الفحل الطاهر (تاريخ وأصول العرب بالسودان) وغيرهم من الكتاب. ولكن ما زال تعاني كثير من المؤسسات العلمية والبحثية قصورا في الاهتمام بالروايات الشفاهية، لكن في قسم الآثار – جامعة الخرطوم بدأ الانتباه بأهمية الروايات الشفاهية في معرفة وسد كثير من الفجوات التي يصعب تفسيرها أو تحقيقها اثاريا والاستفادة من مادتها التاريخية الغنية، وهذا وضح جليا في تفسير كثير من الاشكالات والاستفهامات التي تواجهنا في تاريخ السودان ضمن المشاريع التي ذكرتها سابقا.

6/ المخطوطـــــات:

تعتبر المخطوطات جزء أصيل من تراثنا، وتاتي أهميتها في ربطها للماضي بالحاضر عبورا للمستقبل، ومدي اسهامها في تكوين شخصية الأمة وتاثيرها في ضروب الحياة. والتراث يعبر عن شخصية الأمة ويساعد علي معرفة مدي اسهامها الفكري، وهو عند أسلافنا كان ملبيا لرغباتهم ومؤثرا في حياتهم، وقد نتج عن ذلك اسهام فكري منسجم – مهما كانت درجته- فانه حقق هدفه كمؤثر في حياتهم ومعبر عن منظورهم الحضاري. يقول الدكتور شكري (أن لون الورق ليس هو الذي يحدد المعرفة أو يصنعها، وانما يحددها ما ينبض به هذا الورق، وما يكون من اضاءات حروفه وقدراته علي الآثارة والدفع، وتشقيق سبل الفكر، ومد الافاق أمامه) (شكري:1986:177). كما ذهب الدكتور عبدالوهاب عندما ركز علي أن أهمية التراث ليست في قيمته الدينية واللغوية فحسب، بل في دوره الحيوي في حياة الأمة الاسلامية في حاضرها ومستقبلها (عبدالوهاب:1979:180).

واذا جئنا الي التراث السوداني فاننا ندرك منذ الوهلة الأولي أن قيمته ليست في منظوره الكمي، وانما في قدرته علي عكس واقع الحياة الفكرية، وهو ان استمد أصوله من روافد خارجية، من مصر واليمن والحجاز والمغرب وغيرها، فانه علي مر الزمن قدم مزيجا من التراث العربي والافريقي. ويمكن القول أن ما وصلنا من تراث خطي (مخطوطات) علي قلته يعكس جهدا سابقا يفوق ما نبذله الان، رغم التطور التقني. ونظرة الي مصاحف السلف ومخطوطاتها وجوانبها الفنية من تدوين وتزويق وتلوين وزخرفة وتجليد توقفنا علي هذه الحقيقة (ابراهيم:2001:2).

وقد ألقت هذه المخطوطات الضؤ علي كثير من جوانب الحياة المختلفة، فنجد بعضها مؤلفات في الفقه والميراث، وفي تشكيل الشخصية السودانية علي الأقل من منظور ثقافته الفقهية علي مذهب الامام مالك كمختصر خليل بن اسحق، وهنالك

كتب في العقيدة تمثل فترة الممالك الاسلامية في بلادنا مثل طبقات ود ضيف الله، وأخري مؤلفات في علوم القران مثل (منظومة المدات في التجويد لمؤلفها الشيخ عبدالرحمن الاغبش)، وكتب الرحلات من المصادر الأساسية لمعرفة تاريخ السودان خاصة العصر الوسيط، أما كتب الأنساب فهي من المصادر المهمة في معرفة أصول القبائل والجماعات وبعض أخبارها، وقد حرصت الأسر عليها تأكيدا لانتمائها العربي وانتسابها لال البيت وغيرها مثل مخطوطة واضح البيان في ملوك العرب بالسودان وملوك العبدلاب، وشجرة نسب المحس وغيرها من المخطوطات.

مشكلـــــة الدراســـة:

وقد نبع الاحساس بمشكلة غموض تلك الفترة علي الرغم من أهميتها لعدم توفر المصادر والمراجع، وقلة البحوث والدراسات لهذه الفترة تاريخيا واثاريا، وأخيرا عدم انتباه الباحثين السودانيين حتي الان بأهمية اعادة قراءة كتب وسير الرحالة والمؤرخين العرب وكذلك المخطوطات القديمة في فهم هذه الفترة، وحتي التي وجدت من هذه المخطوطات تحتاج للمراجعة والفحص والتمحيص حتي يتم التأكد من صحتها.

وتعتبر هذه الفترة من أكثر الحقب او الفترات تعقيدا في تاريخ السودان الثقافي والحضاري، وذلك فيما يخص المجموعات البشرية وتركيبها الاجتماعي وعلاقاتها السياسية والدينية بل وحتي التبادل الثقافي مع المناطق المجاورة، فقد أحدثت هذه العلاقات كثيرا من التعقيدات في النواحي الاجتماعية والثقافية. كذلك عند تحويل النوبة الي المسيحية في القرن السادس الميلادي وصارت جزءا من المجتمع المسيحي العالمي أصبحت مصر الجارة الشمالية مسلمة عربية وعليه ظهرت تيارات دينية جديدة وأصبح لدينا محموعات عرقية مختلفة ثقافيا ودينيا أدت الي ظهور العديد من المشاكل والتعقيدات خاصة فيما يخص العلاقات التجارية والثقافية بين البلدين، حيث أصبحت بلاد النوبة ملتقي لثلاثة مجموعات مختلفة ثقافيا تمثلت في النوبيين والأقباط والعرب المسلمين والتي أحدثت بعض التعقيدات في تركيبة المجتمع النوبي. أيضا ظهرت في هذه الفترة مجتمع افريقي-عربي مسلم والذي وصل مرحلة النضج في فترة دولة الفونج. ونتيجة للعلاقات التجارية والدينية والثقافية للنوبيين مع مصر وبيزنطا وغيرها حدثت بعض التغيرات في شكل ومظهر العمارة النوبية خاصة الدينية وكذا فيما يتعلق بالفخار. أما فيما يخص المصادر التاريخية فنجد قصور وضعف في بعض المعلومات والتفاصيل عن أهم الأحداث التاريخية في تلك الفترة مثل اتفاقية البقط، وكذا معظم الدراسات تحدثت عن علوة والمقرة باعتبارهما جسم واحد وغيرها من الامور.

أهـــداف الدراســـــة:

لـذا كان مـن أهـداف هـذه الدراسـة تسـليط الضـؤ عـلي تلـك الفـترة، واعـادة ترتيـب التاريـخ في السـودان بصـورة عامـة والشـمالي عـلي وجـه الخصـوص، بحيـث تصبـح الفـترة مـن القـرن السـابع الميـلادي وحتـي قبيـل قيـام مملكـة الفونـج الاسـلامية فـترة أساسـية ومهمـة في ذلـك التاريـخ، وقـد حكـم النوبـة المنطقـة لفـترة طويلـة وفي بعضهـا شـاركتهم فيهـا القبائـل العربيـة، عليـه فـان اظهـار هـذه الحقبـة يسـاعد في فهـم تاريـخ الاسـلام في المنطقـة بشـكل متسلسـل، كـما يسـاهم في اماطـة اللثـام عـن مميـزات الآثـار المبكـرة لدخـول الاسـلام المنطقـة ومـن ثـم تحليلهـا للوصـول لتلـك المميـزات ومقارنتهـا ببعضهـا البعـض.

ولا ننكـر بوجـود بعـض جوانـب مـن القصـور لهـذه الدراسـات، ففـترة التدفـق العـربي في المنطقـة وبـدأ تسريـب ودخـول الاسـلام فيهـا وقيـام امـارات وممالـك في كنفهـا، قـد غطاهـا ضجيـج مملكـة الفونـج الاسـلامية مـن ناحيـة، ومملكـة الفـور مـن ناحيـة أخـري، بالاضافـة الي الاهـمال الواضـح ولسـنوات عديـدة مناطـق بعينهـا وقلـة الدراسـات التـي تتنـاول فتراتهـا التاريخيـة ودورهـا الثقـافي في التاريـخ السـوداني ككل، وهـذا واضـح بشـكل كبـير في منطقـة المحـس، والتـي أوضحـت المسـوحات والحفريـات فيهـا والتـي بـدأت منـذ أوائـل التسـعينات أهميتهـا في فهـم فـترات تاريخيـة بعينهـا، وخاصـة فيـما يتعلـق بالوجـود العـربي فيهـا ودخـول الاسـلام الي السـودان بصـورة عامـة عـن طريقهـا.

امـل أن يسـهم هـذه البحـث في تسـليط بعـض الأضـواء عـلي تلـك الحقـب والجوانـب، وتفتـح شـهية الباحثـين خاصـة مـن شريحـة الآثاريـين للتنقيـب والبحـث في تاريـخ هـذه الفـترة، فربمـا تاريـخ هـذه الفـترة يمثـل أسـاس البنـاء الـذي كـون المجتمـع السـوداني المعاصر.

خلفيـــة تاريخيـــــة:

يحتـل السـودان موقعـا اسـتراتيجيا في القـارة الافريقيـة بمسـاحته الشاسـعة (مليون ميل مربـع) قبـل انفصـال دولـة جنـوب السـودان، وهـو مـن أكـبر الأقطـار الافريقيـة ومتسـعا لـكل مناخاتهـا وبيئاتهـا. هـذا التنـوع جعـل منـه مسرحـا لتطـور ونشـؤ ثقافـات وحضـارات متعاقبـة خلفهـا لنـا انسـانه القديـم، وكان لهـا دور رائـد في تقـدم وازدهـار الحضـارات الافريقيـة وتاريـخ البشريـة عامـة في مختلـف عصورهـا. كـما وقـد عـززت الدراسـات والاكتشـافات الآثاريـة والتاريخيـة مـا ذهـب اليـه المؤرخـون والآثاريـون عـن عظمـة وأصالـة الحضـارات السـودانية وريادتهـا في القـارة ومـا حولهـا، اضافـة الي تاريخ واسـتيطان متسلسـل ومسـتمر بدايـة بعصـور مـا قبـل التاريـخ (أي العصـور الحجريـة الثلاثـة) حيـث كانـت

مخلفاتها الأثرية تقف شاهدا علي ذلك من صناعته لأدوات حجرية وأسلحة واستيطان بشري منذ أقدم العصور، حيث تطور الانسان فيها بصورة مطردة في مجال حياته من صائد وجامع لطعامه حتي صار منتجا له عند اكتشافه للزراعة واستئناسه للحيوان (Arkell:1949). أعقبت هذه الفترة حضارة عرفت بالمجموعات النوبية (أ – ب – ج) وسبقت أولي مملكة أو حضارة في افريقيا وهي حضارة كرمة كجزء مهم من التسلسل الحضاري في السودان القديم. وتعتبر حضارة كرمة أولي حضارة افريقية محلية، كان لها نظامها الاداري ومعابدها الضخمة (الدفوفة الغربية) وفخارها المميز واقتصادها المتنوع والذي يعتمد علي الرعي والزراعة (حاكم وبونيه:1997). تلت هذه الحضارة الوجود المصري في السودان من خلال فترات الممالك المصرية (القديمة – الوسيطة – الحديثة). بعد ذلك جاءت حضارة نبتة متميزة بقوتها العسكرية والسياسية، وبدأت تتبلور تلك الحضارة لتلعب أدوارا كبيرة ومتميزة في وادي النيل والشرق الاوسط، وقد عرفت بالأسرة الخامسة والعشرون التي تطورت في عدة مجالات خاصة الدينية والاقتصادية وقد كانت تمثل التماذج الثقافي والحضاري المحلي مع الحضارة الفرعونية التي جاء بها الكوشيون من مصر (النور:2006). وعلي الرغم من اختلاف اراء بعضا من العلماء حول (نبتة ومروي) مملكة واحدة أم مملكتين مختلفتين، لكن تلت هذه المملكة (نبتة) مملكة مروي والذي انتقل مقر حكمها من نبتة في الشمال الي منطقة مروي بالبجراوية في الجنوب، وتميزت هذه الفترة بمميزات عديدة أهمها التطور الملاحظ في العمائر الدينية (النقعة والمصورات) والمدنية (المدينة الملكية) والعسكرية (القلاع والحصون) والجنائزية (المدافن والاهرامات) الي جانب الفنون الأخري كالفخار وصناعة الحديد (بيرمنجهام افريقيا) وبلغت ذروة مجدها وتطورها باختراعها للغة خاصة بها وهي اللغة المروية (الزاكي:2006). دخلت بعد ذلك مروي في مرحلة من التدهور والانحلال والضعف وتضافرت عوامل عدة أدت في النهاية الي أفول نجمها وحلت محلها ثقافة أو حضارة أخري عرفت بحضارة ما بعد مروي، لها بعضا من مظاهر حضارة مروي كما واختفت مظاهر أخري مثل أنماط الفنون المروية المختلفة واستخدمت بعضا من التقاليد الفرعونية مثل التيجان الملكية (Kirwan & Emery:1938). بعد ذلك شهدت المنطقة تغيرين رئيسيين الأول ظهور عقيدة جديدة وهي المسيحية، والثاني ظهور لغة لم تكن معروفة من قبل وهي اللغة النوبية. وقد مثل ظهور المسيحية تغيرات هامة في التاريخ الثقافي والسياسي في السودان وذلك علي مدي ثمانية قرون (تاج السر:2003).

كان السودان شمال نهر السوباط مفتوحا منذ القرن السابع الميلادي لدخول العرب ولتسرب بواكير العقيدة الاسلامية، ولقد قبل أهله الإسلام والتغييرات التي حدثت في دار الإسلام من الشمال (مصر) ومن الشرق (الحجاز) عن طريق موانئ باضع وعيذاب وسواكن، ومن المغرب وشمال افريقيا عبر أواسط بلاد السودان، وما كانت إمارة العمري في الصحراء الشرقية وسلطنات التنجور الكيرا في غرب السودان ومملكة الفونج في الوسط والسكراب في شمال السودان، إلا تطورا لتلك الهجرة العربية البطيئة.

وحتى تتم دراسة صحيحة لتلك الهجرة كان من الأصوب أن تم تقسيمها إلى ثلاث مراحل لكل مرحلة خصائصها ومميزاتها وتأثيراتها.

المرحلة الأولى: (640 – 1300م، 20هـ 680-هـ):

شهدت هذه المرحلة أهم حدث في تلك الفترة الا وهو غزو رعاة الابل المتحدثين بالعربية والمسلمين لمصر في عام 640م. ومنذ ذلك الوقت كانت منطقة وادي النيل الأوسط تحكم بواسطة مملكة المقرة وعلوة المسيحيتين. وقد حاولت جيوش العرب مرتين غزو النوبة، وفي المحاولة الثانية وصلوا حتي أسوار مدينة دنقلا العجوز، وانتهت المحاولة بابرام اتفاقية البقط الشهيرة في عام 651م، وهي الأولي من نوعها في دار الاسلام، وهي اتفاقية تجارية ثقافية أعطت النوبة سلاما لأكثر من ستمائة عام.

وأهم ما تتميز به هذه المرحلة هي دخول العرب واتصالهم بالنوبيين، وتدفقهم من الجزيرة العربية واستقرارهم بأسوان بينما كان الاستقرار الأكبر في الصحراء الشرقية، حيث تزاوجوا مع البجة وبدأت عملية الأسلمة بعد عقدهم لمعاهدة البقط الشهيرة هذه بين أمير المؤمنين وعظيم النوبة. كما استمرت التجارة منتعشة مع اقليم السافنا كما هو الحال لأكثر من ألفي عام، واستمر ازدهار الموانئ مثل باضع وعيذاب مما أدي لتدفق المزيد من المسلمين. وغربا اتجهت مجموعات بدوية رعوية وانتشرت عبر السافنا حوالي 1000م وبدأ تكوين الدويلات في دارفور في القرن الثالث عش الميلادي.

تتمثل الدلائل الاثرية لهذه المرحلة في الاتي:

1. الاشارة لمسجد عبدالله بن أبي السرح في اتفاقية البقط عام 651م، كما أشار له ابن سليم الأسواني في الربع الاخير من القرن العاشر الميلادي.
2. أكدت وثائق قصر ابريم وجود استيطان عربي في النوبة السفلي منذ القرن التاسع الميلادي (Adams:1984:464).
3. شواهد القبور التي عثر عليها من النوبة والصحراء الشرقية والتي دلت علي الانتشار التدريجي للعرب والمسلمين.

4. اشارة المقريزي لوجود حي للمسلمين في سوبا عاصمة مملكة علوة أو رباط (المقريزي: 1906: 311-312).
5. أدلة المساجد القديمة في غرب السودان من مواقع عين فرح وأوري والتي أرخت الي القرن الثالث عشر الميلادي.
6. الأدوات المستوردة وخاصة الفخار الاسلامي والذي وجد في مواقع مختلفة مثل كلوبنارتي (Adams:1998)، قصر ابريم (Adams:1994)، دنقلا العجوز وسوبا (Welesby:1993)، سنار (صغيرون :1982)، باضع وعيذاب (Kawatoko:1993)، درهيب (Castiglioni:1994).

المرحلة الثانية: (1300 - 1500م، 680هـ – 920هـ):

تزامنت هذه المرحلة تاريخيا مع انتهاء مملكة المقرة المسيحية وقبل قيام دولة الفونج الاسلامية. وأهم ما تتميز به هذه المرحلة هي سقوط وانتهاء مملكة المقرة المسيحية، وبدء وصول العلماء من الجزيرة العربية في مهام اصلاح الدين، وبعدها تدفق العرب بأعداد كبيرة بعد أن انكسر الحاجز السياسي للصحراء الشرقية ووادي النيل وتوغلوا جنوبا للبطانة والجزيرة مثل جهينة والكواهلة.

الدلائل الأثرية والأدبية لهذه المرحلة:

1. شهدت هذه المرحلة وصول العلماء لاصلاح حال الدين والذين قاموا ببناء الخلاوي والمساجد.
2. أصبح السكان في معظم شمال السودان وشرقه ثنائي اللغة، حيث نجد النوبة والبجة يتحدثون لهجات محلية ويتخذون من العربية لغة العلم والدين، وقد انتشرت العربية من البحر الأحمر شرقا الي تشاد غربا ومن أسوان شمالا الي شمال خط 10 درجة شمال في الجنوب.
3. رصدت الدلائل الأثرية لقصور ومساجد مملكة التنجور في الغرب.
4. الأدوات المستوردة وخاصة الفخار الاسلامي.

المرحلة الثالثة: (1500 1800-م، 906هـ – 1215هـ):

أتت معظم الأدلة من هذه المرحلة والتي تميزت بثلاثة أحداث عظام أولاها: اختفاء مملكة علوة والتي حلت محلها مملكة الفونج الاسلامية، وهي أول مملكة اسلامية في وادي النيل.

الحدث الثاني: هزيمة المماليك في مصر من قبل السلطان العثماني سليم الأول في عام 1517م. ثم قاموا باحتلال سواكن في عام 1557م ومن ثم تحولوا للنوبة ووصلوا

حتي الشلال الثالث حيث تم رسم الحدود في حنك (15 كيلو جنوب الشلال الثالث) واستمرت حتي عام 1821م.

أما الحدث الثالث فهو قيام سلطنة الكيرا في غرب السودان والتي ازدهرت في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين، حيث صارت مركزا للطرق التجارية من الغرب للشرق ومن دارفور عبر درب الأربعين الشهير وشمال غرب الي طرابلس وتونس. وقد كان نتاج هذه التجارة فتح دارفور لمؤثرات خارجية متنوعة.

الدلائل الأثرية والأدبية لهذه المرحلة:

1. منطقة السيطرة العثمانية في النوبة، أو ما عرف بسنجوقية ابريم، وجدت فيها قلعتي صاي وابريم، كما كشفت العديد من الوثائق في ابريم والتي أوضحت نوع الحياة الدينية المتمثلة في المحاكم الشرعية وأسماء عدد من القضاة والأئمة بالاضافة لأسماء بعض الموظفين المدنيين (الكشاف). وجدت كذلك في ابريم مخلفات مادية أخري مثل النسيج، الفخار، الأدوات الجلدية، الأدوات السعفية، الأدوات الزجاجية والأدوات المنزلية المتنوعة. اما في سنجوقية الحبش، ففي سواكن تطورت ثلاثة أنواع من المباني الاسلامية التقليدية.
2. انتشرت القباب وبقايا المدن الاسلامية في منطقة سيطرة الفونج من دنقلا العجوز، الخندق، قري، سنار وأربجي. كما نجد بقايا القلاع بين الشلالين الرابع والخامس بالاضافة للفخار والأدوات المعدنية.
3. أما في غرب السودان فقد كانت كردفان منطقة نزاع بين الفونج والفور ولم يتم رصد اثارها حتي الان. والي الغرب منها نجد مخلفات مملكة الكيرا من قصور ومساجد ومدن مثل كبكابية، أوري والفاشر.
4. جنوب خط 10 درجة شمال لا نجد اي دليل لسيطرة الفونج أو دخول المسلمين قبل القرن التاسع عشر الميلادي والذين دخلوا بسبب التجارة. وقد دلت الأعمال الآثارية علي وجود فخار وشقف من غليونات الفونج في احدي الدبات بالقرب من الرنك وملكال.

وهكذا يتضح من الدلائل التاريخية والاثرية أن الاسلام قد دخل السودان مبكرا ومنذ القرن السابع الميلادي، وقد تعايش مع المسيحية حتي نهاية مملكة المقرة، وعندها بدأت مرحلة جديدة من الاصلاح الديني بقدوم العلماء من الجزيرة العربية والذين استقروا في اقليم دنقلا ومن هناك تحرك أحفادهم جنوبا لديار الشايقية حيث أسسوا المزيد من الخلاوي لتدريس القران والعلوم الدينية، وعند قيام مملكة

الفونج كان هنالك مسلمون في منطقة الجزيرة والبطانة، حيث سادت مملكة الفونج. لقد بدأت أول دولة اسلامية في وادي النيل الاوسط بدون جهاد مما يؤكد علي وجود مجتمع مسلم كبير في هذه المنطقة.

من هذا العرض لطبيعة أدلة الاسلام في السودان فاننا نتوقع وجود اختلافات ذات مغزي في الثقافة المادية لكل اقليم سواء أن كان من الناحية الزمنية (اكثر من 1000عام) أو من الناحية المكانية (مساحة مليون ميل مربع – قبل انفصال جنوب السودان). أيضا يجب أن نتوقع اختلافات كثيرة، عدا في المسائل الدينية، بين السكان المستقرين علي النيل وبين بدو السافنا.

كما يجب الملاحظة أن الأمور في سنجوقية ابريم والحبشة في المرحلة الثالثة كانت مختلفة ولمدة ثلاثمائة عام عما يدور في مملكة الفونج، والتي يجب أن توضح بصورة واضحة تحت الحكم العثماني فان الادارة العسكرية، المالية، الشرعية والدينية تعني أن المراكز مثل قصر ابريم، الدر، وادي السبوع وسواكن كان لديها موظفين مقيمين مثل الكشاف وعلماء مثل القضاة والأئمة وجنود مرتزقة تم تجنيدهم من كل أنحاء الامبراطورية بالاضافة للتجار والحرفيين.

والي الجنوب وبالرغم من أن مملكة الفونج كانت لديها اتصالات عن طريق طرق تجارتها وحجيجها من سنار لسواكن مع دار الاسلام ولكنها كانت معزولة من السنجوقيتين، وقد طورت مثل سلطنات الغرب في السافنا نظام مختلف.

بهذا أضحت الفترة الإسلامية في السودان فترة مهمة وأساسية وتحتاج إلى المزيد من الدراسات.

وحتي يسهل للقارئ أو الباحث فهم هذه العملية (دخول الاسلام بلاد السودان قبل القرن السادس عشر الميلادي) كان لا بد من تقسيمها الي مراحل، لكل مرحلة أدلتها الثقافية والمادية.

- العصور الوسيطة في السودان
- دخول المسيحية بلاد النوبة
- دخول العرب بلاد السودان
- دخول الاسلام بلاد السودان
- مراحل دخول الاسلام بلاد السودان
- المرحلة الأولي (640-1300م) (20-680هـ)
- المرحلة الثانية (1300-1500م) (680-920هـ)

تمهيـــد:

مـن خـلال مـا تـم مـن أبحـاث ودراسـات يمكننـا رسـم صـورة لآفـاق الـتراث والثقافـات والحضـارات السـودانية الأفريقيـة والعربيـة كذلـك. وقـد تعـارف الآثاريـون عـلى تقسـيم الإنتـاج الحضـاري للإنسـان إلى عصـور وفـترات مختلفـة، إذ عـلى الرغـم مـن أن سـير التاريـخ البـشري هـو سلسـلة مـن حـوادث مسـتمرة متواصلـة الحلقـات، فإنـه يسـوغ للآثـاري أو المؤرخ مـن أجـل تسـهيل عـرض حـوادث التاريـخ عرضـاً تطوريـاً منطقيـاً أن يختـار بعـض الأحـداث الحضاريـة الحاسـمة في تاريـخ تطـور الإنسـان فيتخذهـا فاصـلاً مميـزاً بـين عهـد وعهـد.

واسـتناداً لهـذا التطـور المتواصـل والمسـتمر واسـتناداً إلى المعطيـات الآثاريـة فـإن حضـارات العصـور القديمـة تبعـت مراحـل تطـور يختلـف تاريخهـا مـن منطقـة لأخـرى وفقـاً لتاريـخ اكتشـافها لأولى التقنيـات كاكتشـاف النـار والزراعـة وغيرهـا (انظـر جـدول رقـم 1).

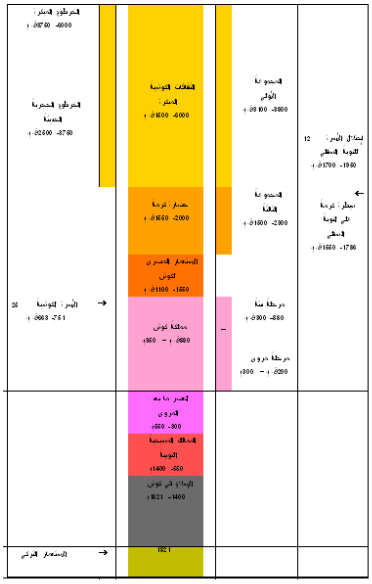

(المصدر: www. Arkqamani.org)

جدول رقم (1)

الترتيب الزمنى للثقافات والحضارات السودانية

العصر الوسيـــط
في الســودان

كـما ذكرنـا سـابقا فـان اتخـاذ الفواصـل بـين فـترات التطـور الثقـافي للبشريـة يكـون عـادة مـن أجـل تسـهيل عـرض الحـوادث، ولكـن الحقيقـة الواضحـة أنـه لا توجـد نهايـات فاصلـة ولا بدايـات حاسـمة بـل هـي مراحـل تداخـل بـين فـترة وأخـرى، ومـن هـذا المنطلـق لا بـد هنـا مـن أن نبـدأ حديثنـا مـن العصـور الوسـيطة والتـي تمثـل في التقسـيمات الرسـمية فـترة الممالـك المسـيحية الا أنهـا الفـترة التـي بـدأ فيهـا المـد الإسـلامي يظهـر ولكـن ببـطء وبصـورة غـير ملحوظـة لانـه لم يكـن بصـورة رسـمية.

تمثـل فـترة العـصر الوسـيط في السـودان، مرحلـة هامـة مـن مراحـل تاريخـه الثقـافي والحضـاري، ويحيـط بهـذه المرحلـة الكثـير مـن الغمـوض لقلـة المصـادر. إلا أن مـا كتـب عـن هـذه الفـترة لا يعـدو أن يكـون سـوى إشـارات عرضيـة عـلى لسـان مؤلفـي ومؤرخـي العصـور الوسـيطة وحتـى هـذه الإشـارات العرضيـة القليلـة لم تخـلُ أحيانـاً مـن مبالغـات أو تحريفـات.

أمـا كتابـات أهـل النوبـة أنفسـهم باللغـة النوبيـة، أو النصـوص اليونانيـة أو القبطيـة يضـاف إلى ذلـك مـا تكتنـزه المخطوطـات الكنسـية بالإسـكندرية أو القسـطنطينية كانـت محـددة القيمـة مـن الناحيـة التاريخيـة. ومـا وجـد منهـا لا يحتـوي عـلى كل جوانـب الحيـاة المختلفـة وإنمـا انحـصر دورهـا في الجانـب الدينـي (مسـعد1: المصـدر المذكـور: 43).

لكـن في الاونـة الأخـيرة ظهـرت كتابـات أخـري لعلـماء ومؤرخـين وباحثـين وطنيـين وغـير وطنيـين مـن جنسـيات مختلفـة، عـلي سـبيل المثـال كروفـورد (1953م) القـلاع والكنائـس في اقليـم النيـل الاوسـط. شـيني (1955م) حفريـات سـوبا، و(1978م) تجـارة النوبـة في العـصر الوسـيط. اركل (1959م) عـن الكنائـس والأديـرة المسـيحية في عـين فـرح (دارفـور). ويليـام ادامـز (1977م) النوبـة رواق افريقيـا، و(1986م) صناعـة الخـزف في النوبـة في العـصر الوسـيط، و(1992) عـن الكنائـس النوبيـة، و(1994م) البيـت الحصـن في نهايـات العـصر الوسـيط وغيرهـا. أمـا عـلي عثـمان محمـد صالـح (1978م) فقـد كتـب عـن التجـارة والاقتصـاد في النوبـة في تلكـم الفـترة (العصـور الوسـطي)، و(1982م) العصـور الوسـيطة في بـلاد النوبـة و(2004م) التاريـخ والاسـتيطان في اقليـم الشـلال الثالـث في فـترة العـصر الوسـيط، بالاضافـة الي كتابـات اخـري. و(2012م) عـلي عثـمان وديفيـد ادوارد في منطقـة الشـلال الثالـث. والاب جيوفـاني فانتينـي (1978م) عـن تاريـخ المسـيحية في الممالـك النوبيـة القديمـة والسـودان الحديـث، و(2010م) واعـادة اكتشـاف تاريـخ النوبـة القديـم. وديريـك

ويلسبي و دانيال (1991م) عن سوبا. وديريك ويلسبي (2002م) عن الممالك النوبية في العصور الوسطي. بالاضافة الي أعمال البعثة البولندية (1964م وحتي الان) في كنائس دنقلا العجوز ومنطقة همبكول وبنقنارتي. محمد أحمد عبدالمجيد (2002م) تحصينات العصر الوسيط في منطقة الشلال الثالث، و(2007م) الخصائص الثقافية لمنطقة الشلال الثالث في الفترة المسيحية. عبدالرحمن ابراهيم سعيد (2009م) أنماط الاستيطان والعمران في منطقة الشلال الثالث في فترة العصر الوسيط. أحمد حسين عبدالرحمن (2009م: مملكة المقرة وحضارتها رؤية من واقع المعطيات الآثارية الجديدة). صباح السراج (2016: الفنون والزخارف المسيحية من خلال معروضات المتحف القومي). شيراز محمد صالحين:2021م فخار منطقة الحمرا المسيحية بمنطقة منخفض القعب غرب دنقلا. أمل عطية: 2021م اثار العصر الوسيط في منخفض القعب غرب دنقلا) وغيرها.

وقد عرف المؤرخون والجغرافيون العرب في العصور الوسيطة بلاد النوبة بأنها البلاد التي تقع في الجنوب من مصر على جانبي نهر النيل قرب مدينة أسوان شمالاً حتى التقاء النيلين الأبيض والأزرق جنوباً، إضافة إلى مناطق من حوض النيل الأزرق وما يليها غرباً (إقليم كردفان ودارفور) إلى جانب حوض نهر عطبرة حتى أطراف الحبشة شرقاً.

ويعتبر التاريخ الزمني أو الفترة الزمنية من أكثر المفاهيم تعقيداً وذلك فيما يتعلق ببداية فترة العصور الوسيطة ونهايتها، هذا وتشير بعض المصادر إلى أن هذه الفترة تعنى بدراسة التطور الثقافي الحضاري لبلاد النوبة بدءاً من حقبة ما بعد مروي وبالتحديد الفترة التي شهدت قيام الممالك المسيحية في بلاد النوبة وتستمر حتى بداية ظهور الحضارة الإسلامية في السودان أي الفترة ما بين 500-1500م (علي عثمان: 1980: 66).

وقد تميزت هذه الفترة بصراع حضاري وثقافي حاد بين ثلاثة ثقافات قوية ومؤثرة جداً:

الأولى:الثقافة المحلية الأفريقية، وتسمى أيضاً بالثقافة النوبية، حيث كان العنصر النوبي يشكل القوة السياسية والثقافية والاقتصادية الأولى في تلك الفترة بين المجموعات التي كانت تسكن المنطقة، والنتاج الطبيعي لهذا التداخل السياسي والاقتصادي والثقافي بين الشعب النوبي والشعوب المجاورة لهذه الثقافة العظيمة. وتبلورت هذه الثقافة في القرن الرابع الميلادي لتكوّن الموروث الحضاري والثقافي والذي نسميه بالحضارة النوبية.

الثانية:وهـي الثقافـة المسـيحية، والتـي دخلـت ذلـك الـصراع الحضـاري في بدايـة العـصر الوسـيط في أرض النوبـة. والتـي دخلـت مـن مـصر عـن طريـق التجـارة ثـم التبشـير بواسـطة الإمبراطوريـة البيزنطيـة. وقـد انتـشرت هـذه الديانـة في وقـت وجيـز وأصبحـت ديـن الدولـة الرسـمي. ومهـد ذلـك الطريـق للتأثـير المبـاشر عـلى السـلك الإداري والسـياسي والاقتصـادي. وانفتحـت بـلاد النوبـة عـن طريقهـا إلى آفاق بعيـدة وارتبطـت حضاريـاً وثقافيـاً بالإمبراطوريـة البيزنطيـة وبـلاد البحـر الأبيـض المتوسـط. عـلى أن الإنسـان النـوبي وتبعـاً لتلـك الحضـارة النوبيـة، اكتسـب صفـة التعايـش الحضـاري عـلى مـدى التاريـخ، فأصبحـت بـلاد النوبـة بـؤرة حضاريـة تلتقـي عندهـا الحضـارات لتتعايـش ثـم تتبلـور في صـورة جديـدة لهـا الكثـير مـن سـمات موروثاتهـا المتمثلـة في الحضـارة الأفريقيـة المحليـة ولهـا بعـض صفـات الحضـارات الوافـدة إليهـا ليصبـح هـذا الكائـن الجديـد المـوروث الحضـاري النـوبي الأصيـل.

الثالثة:الثقافـة الإسـلامية والعربيـة، حيـث وفي نفـس الظـروف التـي اسـتطاعت فيهـا الثقافـة النوبيـة أن تتبلـور مـع الثقافـة المسـيحية الوافـدة، بـدأ تأثـير الحضـارة والثقافـة الإسـلامية والعربيـة يظهـر بوضـوح في مـسرح الأحـداث الثقافيـة السـودانية، حيـث بـدأت تنسـاب هـذه الحضـارة أو الثقافـة الإسـلامية منـذ القـرن السـابع الميـلادي، إلا أن آثـار هـذا الانسـياب بـدأ يظهـر بوضـوح في نهايـات العـصر المسـيحي. وقـد جـاء الإسـلام إلى بـلاد النوبـة بنفـس أسـلوب مجـيء المسـيحية (التجـارة – التبشـير) إلا أن التبشـير الإسـلامي جـاء عـن طريـق الطـرق الصوفيـة (عـلي عثمان:المصـدر السـابق: 66-68).

دخول المسيحية بلاد النوبة:

ترجـح معظـم الروايـات دخـول المسـيحية بـلاد النوبـة عـن طريـق مـصر والتـي أخـذت تتـسرب تسربـاً بطيئـاً إلى بـلاد النوبـة منـذ أواخـر القـرن الثالـث الميـلادي. وبـدأت المرحلـة الحاسـمة مـن مراحـل الدعـوة للمسـيحية في بـلاد النوبـة زمـن الإمبراطـور جسـتنيان (537-565م) والإمبراطـورة ثيـودورا، وعـن طريـق المبشريـن الأقبـاط القادمـين مـن مـصر (مسـعد1:المصدر السـابق: 56).

في تلـك الفـترة نشـأت في بـلاد النوبـة ثـلاث ممالـك مسـتقلة عـلى أنقـاض دولـة مـروي والتـي انهـارت في أواسـط القـرن الرابـع الميـلادي، وهـذه الممالـك:

- مملكـة نوباتيـا وكانـت تضـم حـوض وادي النيـل مـن أسـوان وحتـى الشـلال الثالـث، وعاصمتهـا فـرس.
- مملكـة المقـرة وكانـت تضـم المنطقـة مـن الحـدود الجنوبيـة لمملكـة نوباتيـا وحتـى ملتقـى النيلـين والجـزء الأعظـم مـن شـمال كردفـان ودارفـور، وعاصمتهـا دنقـلا العجـوز.

- مملكة علوة وكانت تضم منطقة الجزيرة ومنطقة البطانة وشمال وأواسط كردفان ودارفور، وعاصمتها سوبا.

معنى هذا أن منطقة النوبة ومنذ حوالي القرن الرابع الميلادي كانت تضم كل شمال وأواسط دارفور وكردفان ومنطقة الجزيرة والبطانة ثم حوض النيل من ملتقى النيلين وحتى منطقة أسوان (علي عثمان:المصدر السابق: 41).

واتحدت المملكتان الشماليتان نوباتيا والمقرة في مملكة واحدة في وقت غير معروف تحديدا ولكن ما بين عامي (580-653م) عرفت باسم مملكة المقرة وعاصمتها دنقلا العجوز، وكما هو معروف فقد تم تحويل مملكة نوباتيا وعلوة على المذهب التوحيدي ومملكة المقرة على المذهب الملكاني (الأب فانتيني: المصدر المذكور: 5).

وبغض النظر عن أسباب قبول المسيحية إلا أن الأدلة تشير إلي قبولها من قبل حكام النوبة أولاً ثم نجد تحولاً سريعاً في المدافن مما يدل علي أن الأمر بدأ بمرسوم رسمي(.Adams: Op.cit:443)

وقد أشار علي عثمان بأن المسيحية انتشرت في بلاد النوبة في وقت وجيز وأصبحت دين الدولة الرسمي. وقد أدى هذا لتمهيد الطريق لها للتأثير المباشر على السلك الإداري والسياسي والاقتصادي، حيث نجد الانفتاح بصورة واضحة في الفن الكنسي النوبي وفي انتشار اللغة الإغريقية، بجانب اللغتين القبطية والنوبية كلغة كنيسة. تطورت اللغة النوبية لتصبح لغة القراءة والكتابة، بعد أن كانت لغة تخاطب فقط، لتصبح من السمات المميزة للواقع الحضاري لذلك العصر. وكذلك ظهر فن نوبي جديد به سمات الفن النوبي القديم ومكتسبًا ومضيفًا عناصر مسيحية وافدة. وكذلك كان الحال لباقي المجالات الثقافية الأخرى بحيث أننا نستطيع أن نتحدث عن موروث حضاري وثقافي نوبي متكامل (علي عثمان:المصدر السابق: 67-68).

وهنالك شيء لا يخفى على الناس وهو أن المسيحية هي أول الديانات السماوية التي دخلت أرض النوبة لذا كانت جديدة على عامة الشعب. وكانت اللغتين القبطية والإغريقية لغتي تبشير في البداية، أدى ذلك لجعلها غريبة على الناس، وبعيدة عن مشاعرهم الدينية، لكن نجد الإنسان النوبي الأصيل بأصالة حضارته اكتسب صفة التعايش الحضاري على مدى التاريخ الطويل والذي شهد الانسياب الحضاري من جهة، والتحرر الحضاري من جهة أخرى إلى بلادهم من الشمال، فأصبحت هذه المنطقة مكان تلتقي فيه الحضارات لتتعايش ثم تتبلور ليصبح هذا الكائن الجديد الموروث الحضاري النوبي.

دخول العرب بلاد السودان

من المعلوم بأنه كانت هنالك علاقات ما بين العرب وبلاد السودان منذ القدم، ولم تكن معرفة السودان بالعنصر العربي بدخول الاسلام والثقافة العربية والاسلامية فيه، بل كانت قبل ذلك بكثير، ذلك أن البحر الأحمر لم يكن في وقت من الاوقات حاجزا يمنع الاتصال بين شواطئه الاسيوية العربية وشواطئه الافريقية. وقد لعبت التجارة الدور الرئيسي والهام في ذلك، وقد نشطت حركة تجارة العاج واللبان والذهب والصمغ بين الجزيرة العربية من ناحية والسودان والحبشة من ناحية اخري. كذلك الطريق الشمالي وهو طريق برزخ السويس، وقد كان له دور كبير ومؤثر بين سكان الجزيرة العربية وسكان وادي النيل الأدني منذ فجر التاريخ (Hassan:1967).

لكن كثر تدفقهم الي السودان بدخول الاسلام وانتشاره فيه، خاصة من مصر في حوالي القرن السابع الميلادي، بعد أن استولي العرب المسلمين وفتحوا مصر عام 640م بقيادة عمرو بن العاص، وبدأ توافد العرب الي مصر والتي غدت مركزا للتجمع في حروباتها وفتوحاتها شمال افريقيا. واستقر البعض بها وانتشر الباقون في مناطق أخري مثل ليبيا وتونس والمغرب والاندلس.

من الثابت أن العقود الأولي من عمر الخلافة الاسلامية كان العرب هم العنصر الذي تم علي يديه قيام الدولة وتوسعها والدفاع عليها، لكن في عهد المامون (الخلافة العباسية) أصبح النفوذ والقيادة السياسية بأيدي الجنود الفرس وقوادهم حالين بذلك محل الجنود العرب. زاد اضهاد العرب وقل نفوذهم بتولي المعتصم الخلافة عام 833م وكون جيشا من الأتراك الي جانب الفرس بغرض اضعاف نفوذ جنود الفرس والعرب، وبدأت منذ ذلك سيطرة الأتراك في العالم الاسلامي. وبعد هيمنة العناصر غير العربية علي حكم مصر خاصة المماليك توقفت هجرات العرب اليها، وربما لضيق أراضي مصر ونزعة العرب الي الرعي والمراعي الي جانب أن بعضهم اثر الذهاب الي أرض المعدن، كل تلك الأسباب والعوامل جعلت من العرب النزوح جنوبا والدخول الي الاراضي السودانية. ومن أشهر القبائل التي نزحت الي هناك جهينة، بني كنز، بني جعد، بني هلال والهوارة وغيرهم.

من العوامل الأخري والتي ساعدت العرب في الدخول الي السودان، بل وحتي الاستقرار فيه هي حرب المسلمين لدولة النوبة المسيحية (مملكة المقرة) والصلح بينهم بابرام اتفاقية البقط الشهيرة. كذلك زاد نفوذ العرب في السودان بصورة كبيرة وفي بعض المرات تدخلوا حتي في الشئون الداخلية لملك المقرة، ليس فقط باستلامهم

للبقط المفروض علي النوبيين بل حتي في عزل وتعيين الملوك النوبيين وفقا لمصالحهم الخاصة، حيث نجد اعتلاء الملك النوبي المسلم سيف الدين عبدالله برشمبو عرش دنقلا محددا لبداية الاعتناق الرسمي للاسلام في دنقلا. ومنذ القرن الرابع عشر الميلادي لم تعد بلاد النوبة موطن للنوبيين فحسب بل شاركتهم كثير من القبائل العربية. ومن الواضح أنه وبعد سقوط مملكة المقرة المسيحية أدي ذلك الي زيادة موجات الهجرات العربية وبالتالي الي زيادة انتشار الاسلام وسط أهل البلاد (Mac Michael:1922). وكيفما كان الأمر فنجد أنه ومنذ القرن الخامس عشر الميلادي ظهرت العديد من المشيخات والممالك الاسلامية في حوض النيل الأوسط كان لها أكبر الأثر في تطور الحياة الاجتماعية والسياسية مما ساعد علي زوال الاسس التي قامت عليها المسيحية في علوة. كما زالت بعض العادات والتقاليد الاجتماعية القديمة حيث نال الفرد حريته وأصبحت الأرض ملكا للجماعة واختفي نظام الورثة وحل محله نظام شيخ القبيلة. كل تلك التغيرات أدت الي قيام مملكة الفونج الاسلامية عام 1504م.

دخول الإسلام بلاد السودان:

كانت هنالك ثقافة مدنية وحضارية موغلة في القدم لسكان وادي النيل قبل دخول العرب، مما أثر على نموه وتطوره إبان انتشار العرب الرحل الناطقين بالعربية غرباً، والذي انتهى بتكوين الدويلات الإسلامية وسلطنات الفونج والفور وكلاهما تقعان في الحدود الجنوبية لدار الإسلام (انظر خريطة رقم5).

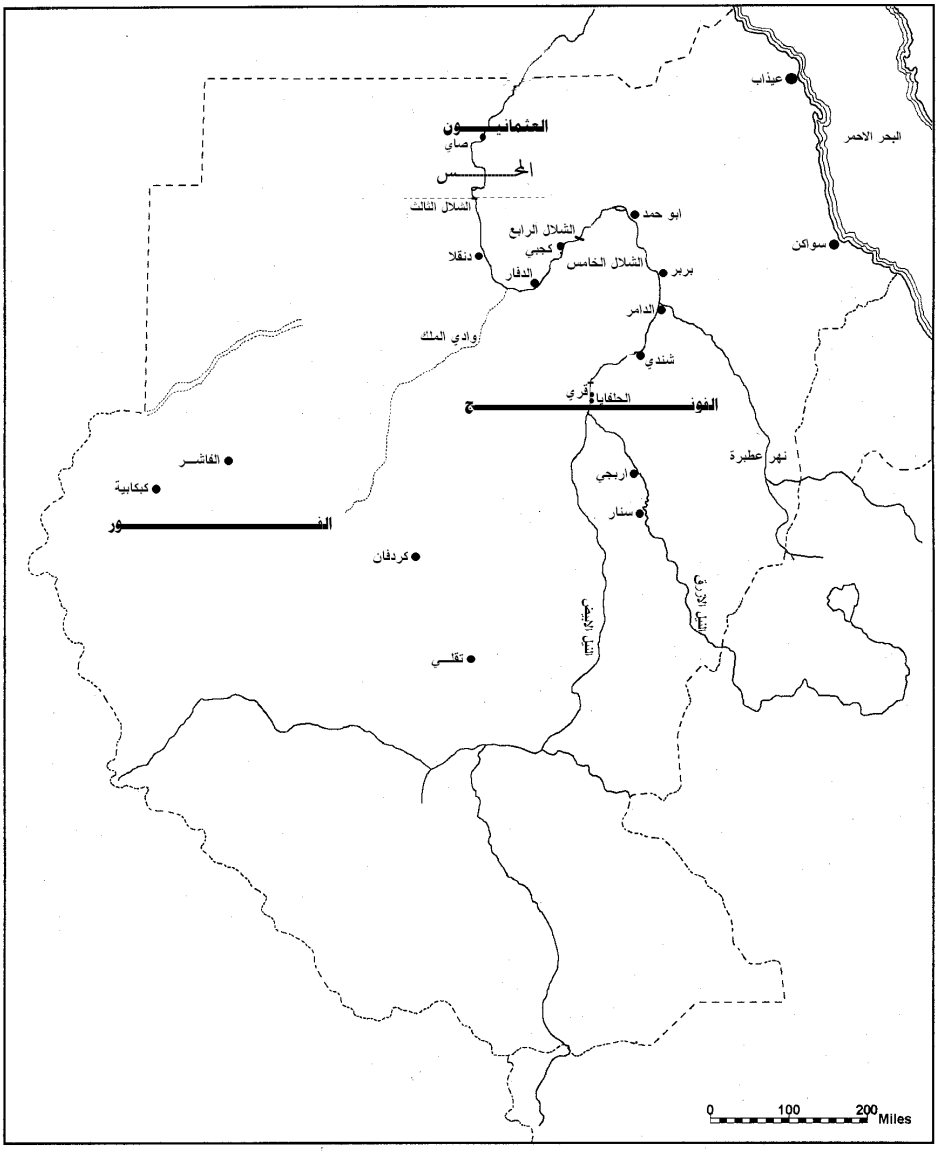

خريطة رقم (5) - تصميم الباحث
الممالك الاسلامية في السودان

وبما أن السودان من أكبر الاقطار في أفريقيا يحوي تنوعاً جغرافياً وثقافياً قبل الإسلام، فإن الاستجابة للدين الجديد وللسكان المهاجرين الجدد كان متنوعاً.

ويمثل سكان السودان اليوم شمال السدود نماذج لمجموعات مختلفة قبل حضور العرب ثم مع العرب في فترات مختلفة ومناطق متعددة. هذه العملية أثرت على البدو في الصحراء الشرقية والغربية وبنفس القدر على المزارعين المستقرين على النيل وأصبح الجميع شمال نهر السوباط مسلمين عدا بعض الجيوب القليلة في جبال النوبة.

مراحل دخول الإسلام (مراحل أسلمة السودان):

لقد كان السودان شمال نهر السوباط مفتوحاً قبل الاسلام لدخول العرب، وقد قبل أهله الإسلام والتغييرات التي حدثت في دار الإسلام من الشمال (مصر) ومن الشرق (الحجاز)، وما كانت إمارة العمري في الصحراء الشرقية، أو سلطنات التنجور والكيرا في غرب السودان، ومملكة الفونج في الوسط إلا تطوراً لتلك الهجرة العربية البطيئة.

ويمكن الان التحدث عن ثلاثة مراحل رئيسية ذات أدلة مادية بينة، هذه المراحل تتسق مع الاحداث التاريخية التي بدأت في العصور الوسيطة.

المرحلة الأولى: (640م1300-م، 20-680هـ) :

تغطي هذه المرحلة فترة مملكة المقرة والتي من أول أدلتها المادية اتفاقية البقط الموقعة بين والي الخليفة عثمان بن عفان، عبد الله بن أبي السرح وبين ملك النوبة قليدروس، وبالرغم من الجدل السائد بين المؤرخين والعلماء حول طبيعة هذه الاتفاقية ومع من وقعت، هل هو ملك المقرة فقط أم المملكتين؟ خاصة أنها تتحدث عن ملك النوبة، إلا أنها حقيقة ماثلة تم العثور عليها في قصر ابريم والتي تعتبر أول سابقة في التاريخ المبكر للاسلام، فالنوبيين لم يعتبروا ضمن دار الاسلام أو دار الحرب (Adams1:op.cit:452)، وعلي الرغم من غموض تفاصيل اتحاد المملكتين وتاريخه الا أن السيرة الذاتية للقديس اسحق قديس الاسكندرية 690م تشير الي وجود ملكين مختلفين لكل من نوباتيا والمقرة يشوب بينهما نوع من العداء، الشئ الذي دفع مونيرت دي فيلارد الي الاشارة الي أن التوحيد قد تم في عهد الملك مرقوريوس في وقت مبكر من القرن الثامن الميلادي (Devillard:1938:103).

أما دوافع هذا الاتحاد ومهما تبدو مرتبطة بالتحولات السياسية والفتح العربي للامبراطورية البيزنطية والتمركز الكبير في ممتلكاتها الافريقية بخاصة مصر التي تم

فتحهـا بواسـطة المسـلمين عـام 640م فـكان لهـذا الفتـح أثـره الكبـير عـلي التحـولات السياسـية في الممالـك المسـيحية. وقـد تلخصـت بنودهـا في الاتي:

- أن يدفـع النوبيـون لبيـت مـال المسـلمين ثلاثمائـة وسـتين عبـداً (360) مـن الرقيـق مـن خـيرة رجالهـم ونسـائهم سـنوياً.
- أن يدخل رعايا كل طرف بلد الطرف الآخر دون الإقامة فيها.
- على النوبة حفظ كل مسلم يدخل بلادهم لأي غرض حتى يغادروها.
- أن يرد النوبيون على المسلمين كل من يهرب إليهم من عبيدهم.
- عـلى النوبـة الحفـاظ عـلى المسـجد الـذي بنـاه المسـلمون بفنـاء مدينـة (دنقـلا) وإكرامـه ونظافتـه وإسراجـه.
- الطـرف الإسـلامي غـير ملـزم بالدفـاع عـن النوبـة إذا هاجمهـا عـدو خارجـي مـن أي جهـة كان.
- إذا نقـض النوبـة أي مـن الـشروط المسـبقة فالمسـلمون في حـلٍ مـن الالتـزام بالمعاهـدة، وببنودهـا وليـس للنوبـة عهـد بعدهـا ولا أمـان.

وقـد أحدثـت تلـك الفـترة كثـير مـن المؤثـرات الدينيـة والسياسـية والاجتماعيـة والاقتصاديـة عـلى أوطـان النوبـة مـما كان لـه أكـبر الأثـر في تحـول مسـتقبل بلادهـم والمناطـق المجـاورة لهـا.

ويـرى بعـض المؤرخـين أن هـذا الصلـح جعـل النوبيـين والمسـلمين عـلى قـدم المسـاواة فـلا غالـب هنـاك ولا مغلـوب بدليـل مـا يدفعـه المسـلمون مـن أشـياء مسـاوية تقريبـاً لمـا يدفعـه النوبيـون وقـد تزيـد وأنهـا مصلحـة مشـتركة، وهـي أشـبه بمعاهـدة تجاريـة. وتعتـبر هـذه الاتفاقيـة أول سـابقة للتاريـخ المبكـر للإسـلام، فالنوبيـون لم يعتـبروا ضمـن دار الإسـلام ولا دار الحـرب (Adams: 1997: 452). كـما علـق البـلاذري (ليـس بيننـا وبـين الأسـاود عهـد ولا ميثـاق، انمـا هـي هدنـة بيننـا وبينهـم)، ويمكـن تفسـير ذلـك بـأن معاهـدة البقـط هـذه كانـت معاهـدة حسـن جـوار للاطمئنـان عـلي سـلامة المسـلمين عـلي حدودهـم الجنوبيـة، بالاضافـة لفتـح بلادهـم للتجـارة وحفـظ مصالـح المسـلمين ونـشر الثقافـة الاسـلامية في بـلاد النوبـة سـلميا ومـن غـير حـرب وجهـاد (مسـعد2: المصـدر المذكـور: 119).

ثـم وأن المعاهـدة ضمنـت للمسـلمين فتـح النوبـة للتجـارة والسـماح لتجـار المسـلمين بزيـارة بلادهـا عـلى ألا يقيمـوا فيهـا، بيـد أن ولاة المسـلمين لابـد توقعـوا أثـر الـدور الـذي يقـوم بـه تجـار المسـلمين – وهـم عنـصر نشـيط - في نـشر الدعـوة الإسـلامية التـي لا تفـرض بحـد السـيف بـل بالحجـة والبرهـان.

ويرى علي عثمان بأن العلاقات السياسية بين المسلمين في مصر والمسيحيين في بلاد النوبة كانت من الدوافع الرئيسية من وجهة نظر حكام مصر – حيث المحافظة على تدفق البضائع النوبية وأهمها الرقيق، وتأمين حدود مصر الجنوبية - ولتحقيق هذه الدوافع سارع المسلمون لعقد هذه الاتفاقية (البقط) (علي عثمان:المصدر السابق: 44).

ومن الواضح أن الإسلام دخل إلى أرض النوبة باتفاقية (البقط) حيث وبعد الانتهاء من توقيع الاتفاقية، ورجوع الجيش الإسلامي إلى مصر تخلف الكثير منه، واستقر بهم المقام في أرض النوبة – الرعي والكلأ - وهم قبائل عربية، وبدءوا في نشر الإسلام وتعاليمه في المنطقة. ولذا نجد أن الثقافة الإسلامية العربية بدأت تنساب إلى بلاد النوبة منذ منتصف القرن السابع الميلادي، إلا أن الآثار الواضحة لهذا الانسياب الحضاري بدأت تظهر في نهايات العصر المسيحي.

أكدت الاتفاقية على وجود مسجد في بلاد النوبة وعلى النوبيين إكرامه وكنسه وإسراجه، فمن ناحية يدل على مبلغ حرص المسلمين على نشر ديانتهم، ومن ناحية أخرى يؤكد أن الإسلام كان موجودا قبل عقد اتفاقية البقط، أي قبل عام 652م. وليس من المعروف تماماً تاريخ بناء هذا المسجد! والراجح أن بناءه سابق لحملة عبد الله بن سعد، بناه التجار المسلمين الذين لم تنقطع صلتهم بوادي النيل. ولوصح هذا فإن الإسلام يكون قد أخذ في الامتداد نحو بلاد النوبة في عصر مبكر (مسعد2: المصدر المذكور:114)، ويتوقف هذا الدليل علي العثور علي مكان المسجد.

وفي أحد نصوص الاتفاقية ذكر بأن للمسلمين الحق في عبور بلاد النوبة مسافرين غير مقيمين (خاصة في منطقة المريس – نوباتيا) وكذلك بالنسبة للنوبيين، إلا أن المسلمين لم يلتزموا بهذا البند، حيث تدفقت موجات هجرة عربية وإسلامية كبيرة إلى بلاد النوبة وطبعت المجتمع النوبي في العهد المسيحي بطابع جديد وهو الثقافة العربية الإسلامية.

ومن خلال الدراسة الآثارية التي تمت في منطقة «الصحابة» جنوب دنقلا ضمن مشروع المسح الآثاري لاقليم غرب دنقلا والتابع لقسم الآثار جامعة بالخرطوم بقيادة بروفيسور انتصار صغيرون اتضح ان تلك المنطقة من المناطق التي تعود لفترتي المسيحية والاسلامية المبكرة، حيث يحتوي الموقع علي عدد من المقابر لقادة عسكريين منذ اتفاقية البقط والتي وقعت ما بين العرب المسلمين والنوبة، بالاضافة الي وجود عدد من الخلاوي القديمة والمنتشرة في المنطقة (الصحابة – ودنميري – لبب) ومجموعة من القباب الاسلامية من طراز الثلاثة درجات، ونمط بناء القباب هذا

قديم جدا. واشار بروفيسور علي عثمان بان اسم «الصحابة» هذا جاء من صحابة رسول الله (ص) الذين جاءوا مع العرب الفاتحين لدنقلا والتي وقعت معهم اتفاقية البقط، حيث تخلف عددا منهم واستقروا هناك وماتوت ودفنوا فيها (صغيرون:تقرير المشروع:2014).

قباب ودنميري - تصوير الباحث

وقد اشار بروف علي عثمان بان معظم الحروبات التي تمت ما بين العرب المسلمين والنوبة تمت في هذه المناطق (الصحابة – ودنميري –لبب) والتي كانت مقرا رئيسيا للجيوش الاسلامية. ومن المعلوم أن تحرك الجيوش هذه كان برفقتها دعاة لتعليم القران وعلومه ونشر أصول الدين بين الجيوش وكذلك نشر الدعوة الاسلامية في تلك الجهات، وكانت منطقة الصحابة من المناطق التي تمركزت بها الخلاوي لأداء تلك المهمة (نشر وتعليم علوم الدين) (علي عثمان :مقابلة شخصية:2016).

وبعد دراسة منطقة الصحابة اثاريا اتضح أن بها خلاوي قديمة بنيت من الحجر الرملي وبها المحراب في الاتجاه الشرقي (القبلة)، وحول هذه القباب وجدت مقابر اسلامية كبيرة وعدد من القباب وشواهد للقبور (صغيرون:تقرير المشروع:2014).

شواهد قبور مبكرة - تصوير الباحث

قباب ود نميري - تصوير الباحث

منظر عام لمقابر ودنميري - تصوير الباحث

منظر عام لمقابر الصحابة - تصوير الباحث

قباب ومقابر منطقة الصحابة - تصوير الباحث

عليه تعتبر منطقة الصحابة وما حولها العمق الحقيقي للدعوة الاسلامية والفنون الاسلامية كذلك كالقباب مثلا وشواهد القبور القديمة، وربما تساعدنا بأن نستنتج منها أهم النظريات لانتشار الاسلام في السودان. لكن يحتاج الامر الي مزيد من البحث والتقصي وتكثيف للدراسات لمعرفة من هؤلاء الصحابة علي وجه التحديد؟ كذلك تحتاج المنطقة لدراسة عميقة طبوغرافيا ودراسة أخري شاملة اثاريا، بالاضافة الي خلفية تاريخية وروايات شفاهية حتي تكتمل دراسة تلك المنطقة واظهار حقيقتها والتي تساعد علي فهم أعمق ومعرفة تامة لدخول الاسلام بلاد السودان منذ وقت مبكر.

أيضا من الاشياء التي لابد من الاشارة اليها أن معني ومكان الاتفاقية كان مسألة جدال بين المؤرخين المعاصرين من العرب والكتاب المحدثين، فيري البعض أنها كانت هدنة عقدت من طرف واحد حيث كان علي النوبة الالتزام بكل بنود الاتفاقية، بينما كانت الجوانب الخاصة بالمسلمين غير ملزمة لهم، حيث اعتبر ما كان يقدمونه للنوبة كهدايا وليس عليهم الالتزام بذلك، ويري علي عثمان بأن المنطق من وراء هذه الاتفاقية كان واضح جدا، فالمسلمون لم يهتموا بالنوبة الا كمصدر للقوة البشرية من ناحية رسمية (Osman:1978:11-26). ان معني ومكان هذه الاتفاقية أخذ كثيرا

مـن التفسـيرات لـدي الدارسـين، فبينـما يـري البعـض تطابـق هـذه الكلمـة مـع النصـوص البيزنطيـة والتـي تشـير الي أن البقـط تعنـي الالتـزام المتبـادل بـين طرفيـه تحكمـه عمليـات الدفـع فـان هـذا المصطلـح «بقـت-Bagit» تعنـي القسـمة (اقتسـام لشـئ مـادي) بلغـة المجموعـات النوبيـة الحاليـة. ويـري البعـض أن الاتفاقيـة لم تعقـد في دنقـلا العجـوز (عاصمة المملكـة) انمـا دنقـلا التـي وردت في الاتفاقيـة مصطلـح قصـد بـه جميـع أرض النوبـة، حيـث لا يوجـد ذكـر لأي مدينـة في كل بنـود هـذه الاتفاقيـة (اليـاس1: 1991: 119).

لكـن اكـدت الدراسـات الاثريـة المسـتمرة في منطقـة دنقـلا العجـوز أن الاتفـاق هـذا تـم في دنقـلا وذلـك بعـد اكتشـاف الأسـوار الدفاعيـة التـي كانـت تحيـط بالمدينـة ابـان قذفهـا بالمنجنيـق. وبالتـالي فـان مصطلـح دنقـلا الـوارد في بعـض نصـوص هـذه الاتفاقيـة لم يقصـد بـه بـلاد النوبـة ككل كـما ذكـر البعـض، وانمـا تعنـي دنقـلا العجـوز حـاضرة مملكـة المقـرة والتـي ظلـت مقـرا لحاكـم المملكـة المتحـدة في تدهورهـا (عبدالرحمـن:2009: 36).

الشـئ اللافـت للانتبـاه أن معاهـدة البقـط لم تخـص البجـا، حيـث لم يـر عنهـم نـص فيهـا، غـير أنهـم مـا لبثـوا أن غـاروا عـلي عـلي صعيـد مـصر حـوالي 725م، فصالحهـم المسـلمون وكتبـوا لهـم عقـدا.. ولم يمـض وقـت طويـل عـلي هـذه المعاهـدة حتـي عـاد البجـا وشـنوا غـارات مـن جديـد عـلي أسـوان، وجـردت عليهـم حملـة بقيـادة عبداللـه بـن الجهـم عـام 841م فكانـت لـه معهـم حروبـات، انتهـت باتفاقيـة وعقـد جديـد بينـه وبـين زعيمهـم كنـون بـن عبدالعزيـز مـن أهـم شروطهـا:

1. أن تكـون بـلاد البجـا مـن حـد أسـوان الي حـد مـا بـين دهلـك (مصـوع) وباضـع (جزيـرة الملـح) ملـكا للخليفـة، وأن كنـون بـن عبدالعزيـز وأهـل بلـده عبيـد لأمـير المؤمنـين، عـلي أن يبقـي كنـون ملـكا عليهـم.
2. أن يـؤدي ملـك البجـا الخـراج كل عـام مائـة مـن الابـل أو ثلاثمائـة دينـار لبيـت المـال.
3. أن يخـدم البجـا الاسـلام ولا يذكـروه بسـؤ، والا يقتلـوا مسـلما أو ذميـا حـرا أو عبـدا في أرض البجـا أو في مـصر أو النوبـة، والا يعيينـوا أحـدا عـلي المسـلمين.
4. اذا دخـل أحـد مـن المسـلمين في بلادهـم للتجـارة أو الاقامـة أو مجتـازا للحـج فهـو امـن لاخـر حدهـم.
5. اذا دخـل البجـا صعيـد مـصر مجتازيـن أو تجـار، لا يظهـرون سـلاحا ولا يدخلـون المدائـن والقـري.
6. الا يهدموا شيئا من المساجد التي ابتناها المسلمون بصيحة وهجر.

7. وعلي كنون أن يدخل عمال أمير المؤمنين بلاد البجا لقبض صدقات من أسلم من البجا.

ونجد أن هنالك عدة نقاط لاختلاف هذا العقد مع البقط، منها أن البجا حتي مصوع اصبحت جزءا من الخلافة الاسلامية، وينطبق عليها شروط البلاد التي تفتح عنوة بدليل الخراج وفرضه عليهم. كما نلاحظ شرط عدم التعرض للمسلمين بأذي سواء في بلاد البجا أو النوبة. كما أن شرط حفظ المساجد القائمة فعلا في بلاد البجا، بالاضافة الي جمع الصدقات ممن أسلم من البجا دليل علي دخول الاسلام في تلك الجهات واقامة بعض المسلمين بها.

ودخول الاسلام وشق طريقه الي مناطق البجا فمن الأرجح أن هنالك جماعات سلكت طريقها الي البجا مثل جهينة وبلي ونزحت الي هذه الجهات للتجارة عقب فتح مصر 641م، وليس من المستبعد أن ينشر افرادها الاسلام بصفة جزئية في منتصف القرن السابع الميلادي. وفي رواية لابن حوقل أن أفرادا من البجا (أسلموا اسلام تكليف وضبطوا بعض شعائر الاسلام وظاهروا بالشهادتين ودانوا ببعض الفرائض) ولهذا سامحهم عبدالله بن سعد ولم يحاربهم (مسعد2: المصدر السابق:120).

وفي نهاية القرن السابع الميلادي عبرت جماعة من عرب هوازن البحر الاحمر واستقرت في ارض البجا، وعرفوا بالحلانقة وانتقلت الي منطقة التاكا، ويري بول (Paul) ان الحلانقة هؤلاء كانوا اول من استقر من العرب المسلمين في البجا. ويقال ان جماعات من الامويين هربوا ولجأوا الي بلاد البجا في منتصف القرن الثامن الميلادي هربا من مذابح العباسيين واستقر عددا منهم في ميناء باضع (مسعد2:المصدر السابق:120).

ومما لاشك فيه أن هذه الجماعات الإسلامية المختلفة تركت لوناً من التأثير فيمن اختلطت بهم، مثلاً منطقة الصحراء الشرقية خاصة البجة، حيث تزاوجوا مع البجة وبدأت عملية الأسلمة، حيث أثبتت الأبحاث الآثارية وجود جاليات إسلامية في منطقة خور (نُبت) الواقعة على مسافة 70 ميلاً غرب سواكن، إذ عثر على شواهد قبور عربية يرجع تاريخها إلى منتصف القرن الثامن الميلادي (760م)، ودل البحث الأثري كذلك على وجود مسجد في سنكات يرجع تاريخ بنائه إلى عام 831م (مسعد1:المصدر السابق: 118). كل هذا يمثل الدليل المادي الثاني للوجود الاسلامي في هذه الفترة.

شاهد قبر – خور نبت

مسجد سنكات

هـذه الاتفاقيـة (البقـط) حفظـت العلاقـات بـين مـصر وبـلاد النوبـة لسـتة قـرون وقـد تخللتهـا العديـد مـن فـترات الصـدام، وتوقـف الدفـع وغيرهـا إلا أنهـا بصـورة عامـة مكنـت بـلاد النوبـة مـن تطويـر ثقافتهـا الماديـة كـما أدت إلي إنعـاش المنطقـة مـن الناحيـة التجاريـة وازدهـار طـرق القوافـل وظهـور وانتعـاش المـدن (القمـر:1997: 154).

ولكـن تشـير المصـادر التاريخيـة الي أبنـاء سـكر والذيـن هاجـروا إلى منطقـة سـدلة في الشـلال الثالـث وبـدءوا في محاربـة الإدارة النوبيـة المسـيحية، وانتـصروا عليهـا وكونـوا مملكـة مسـلمة في 840م (فـدوى عبـد الرحمـن: 2004: 496)، حيـث حضـور عـدد مـن الدعـاة للسـودان، كـما وتخلـف عـدد مـن الجيـش الغـازي مـن أهـل الحديـث والقـران. وتشـير بعـض وثائـق النسـبة الي أن أبي بـن كعـب الانصـاري هـو مـن أوائـل الصحابـة الذيـن اسـتقروا في المنطقـة، وقـد أسـس أحفـاده تلـك الامـارة الاسـلامية والتـي نشـأت تحـت ظـل المملكـة المسـيحية والتـي ذكـرت سـابقا (امـارة السـكراب) (أنظـر خريطـة رقـم3). وقـد دعـم هـذا الاتجـاه وجـود المدافـن القديمـة في منطقـة دلقـو (شـيخ مـرزوق)، ومـا يعـرف بمقابـر الصحابـة بالاضافـة الي أسـماء بعـض المقامـات مثـل مقـام سـيدنا أبوبكـر الصديـق في قريـة حسـين اركي ومـا يعـرف بقـدم النبـي (ص) (النبيـين اوي - بالنوبيـة) في أكـثر مـن موقـع بالمنطقـة، كذلـك الي قبـة أبي فاطمـة شـمال كرمـة، حيـث نجـد أن الأهـالي في أبوفاطمـة وتمبـس وكبـدي حتـي وقـت قريـب كانـوا يـزورون هـذه القبـة باعتبـار أنهـا قبـة شـيخ ويذبحـون لـه النـذور. كـما نجـد قبـاب جزيـرة سـمت وجزيـرة نـاب وقبـة شـيخ مـوسي بمنطقـة فريـق، حيـث عـاش هـؤلاء في كنـف الدولـة المسـيحية مـما يـدل عـلي وجـود حركـة صوفيـة كـبري بالمنطقـة. ولعـل عـدم معرفـة الأهـالي بالمنطقـة بأسـماء الشـيوخ في الجـزر المذكـورة أعـلاه يشـير الي قدمهـا، الا أن الأمـر مـا زال ينتظـر المزيـد مـن البحـث والتقـصي (سـعيد2013:1:318).

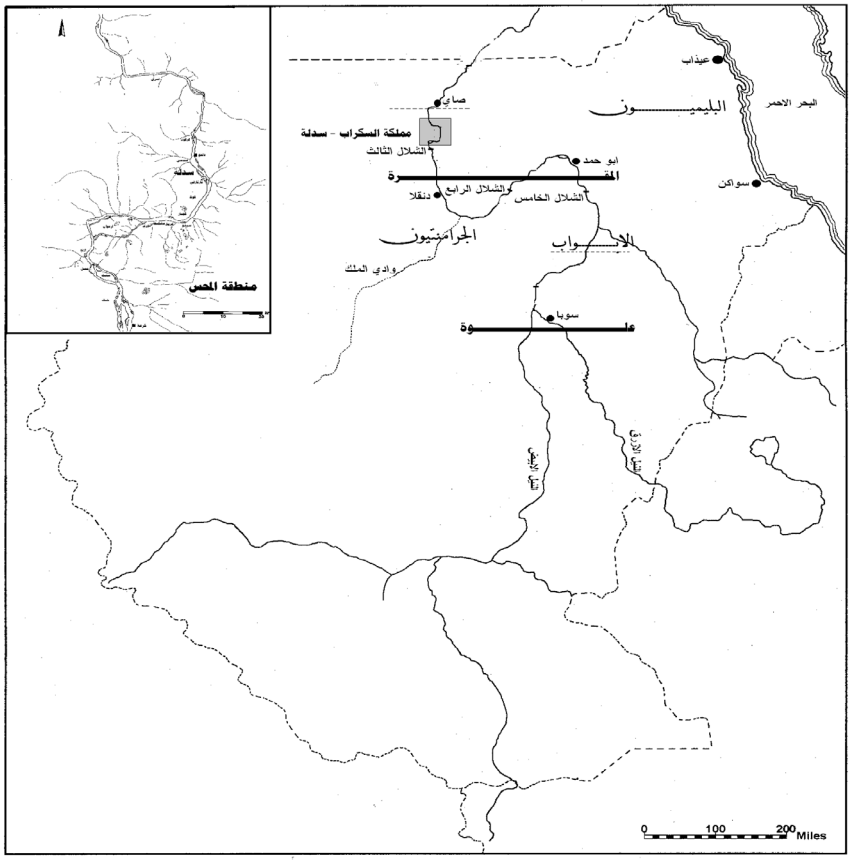

خريطة رقم (6)

الممالك الاسلامية في ظل الممالك المسيحية (السكراب)

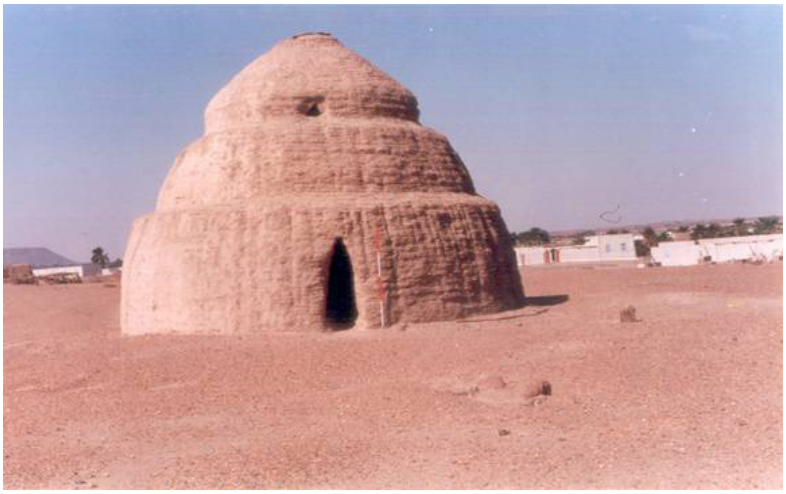

قبة جزيرة سمت (المحس)- تصوير الباحث

قبة ابو فاطمة (المحس) - تصوير الباحث

النبيين اوي (اقدام النبي (ص)(المحس)تصوير الباحث

قبة شيخ مرزوق (دلقو) تصوير الباحث

قباب السكراب (سدلة) تصوير الباحث

المقابر المبكرة في المحس تصوير الباحث

وظهر فيما بعد العنصر القادم من الشمال وكان هو العامل الحاسم في نهاية المطاف في انهيار النوبة. حيث كان هناك ضغط الحكام المصريين على السلطة النوبية الآفلة من ناحية والتسلل المتزايد للعرب البدو وتأثيرهم السلبي على البنية الاجتماعية للنوبة (كروباشيك: 1981: 408). حيث كان للضغط السياسي والاقتصادي للعرب في مصر أسوأ الأثر في نفوسهم، وبدأت جماعات منهم بالنزوح والهجرة، فانسابوا جنوبا وغربا بعيدا عن ضغط الأتراك في مصر. وبدأت مرحلة جديدة من مراحل انتشار الاسلام والثقافة الاسلامية في بلاد النوبا والبجا.

ومـن ثـم وبعـد تأسـيس واقامـة امـارة العمـري الاسـلامية سـنة 868م والتـي تمتـد مـن عيـذاب شرقـا الي أسـوان شـمالا، والتـي كانـت مـن أهـم أهدافهـا بعـد الجيـوش وارسـالها لتأديـب البجـا، هـي الاهتـداء الي مواقـع أخـري للذهـب والبحـث عـن مواقـع أخـري تتسـع للعـرب (مسـعد2: المصـدر السـابق:125). ويشـير عـدد مـن المؤرخـين الي أن فكـرة العمـري هـذا باقامـة امـارة اسـلامية في تلـك المنطقـة شـئ مقبـول لديهـم، ذلـك لتمكنه من الاسـتقرار في مناطـق تعديـن الذهـب بالقـرب مـن النيـل بالاضافـة لحركـة التجـارة وحريتهـا بتشـجيع مـن مملكـة علـوة للتجـار المسـلمين، الي جانـب السـبب الاكـبر والمبـاشر ربمـا مـن اقامـة هـذه المملكـة والي الجنـوب مـن حـدود مملكـة مقـرة ذات الصـلات العدائيـة في أغلـب الأحـوال يعـد نـصرا للاسـلام في مـصر (اليـاس2 :66:2012). وقـد أشـار اليعقـوبي (871م) بـأن الجماعـات الاسـلامية كانـت كثـيرة بـأرض البجـا ودورهـم في نـشر الثقافـة الاسـلامية، كـما زار المسـعودي (940م) مـصر بعـد حملـة العمـري بعـشر سـنوات، وتحـدث عـن الأثـر الواضـح للجماعـات العربيـة الاسـلامية في نـشر الثقافـة الاسـلامية في اقليـم البجـا وبـلاد النوبـة كذلـك (مسـعد2: المصـدر السـابق:126)، كـما تحـدث عـن وصـول الاسـلام جنوبـا حتـي جزيـرة سـواكن، حيـث تسـكن جماعـة مـن البجـا اعتنقـت الاسـلام وتعـرف باسـم «الخاسـة».

وهنـاك مـن المصـادر مـا يشـير الي وجـود مملكـة اسـلامية أخـري في منطقـة دلتـا القـاش تعـرف بـ «مملكـة تفلـين» الاسـلامية في داخـل حـدود مملكـة علـوة الشـمالية الشرقيـة (الياس2:المصـدر المذكـور:136). الي أن الأمـر يحتـاج الي كثـير مـن التقـصي والبحـث والدراسـة.

ويشـير ابـن سـليم الاسـواني (975م) عـن النوبـة أن المنطقـة مـن أسـوان حتـي الشـلال الثـاني هـي الجهـة التـي يتـصرف فيهـا المسـلمون ولهـم فيهـا امـلاك. وتؤيـد الأبحـاث الاثريـة هـذا القـول حيـث وجـود جاليـات عربيـة اسـلامية مسـتقرة في المنطقـة، ذلـك أنـه عـثر في بعـض الأماكـن في مريـس عـلي كثـير مـن الكتابـات العربيـة يرجـع تاريـخ أقدمهـا الي القـرن الثالـث الهجـري (التاسـع الميـلادي) وتـدل كـثرة شـواهد القبـور المكتوبـة بالخـط العـربي وتحمـل أسـماء عربيـة في كل مـن تافـه (280هـ-832م) وفي كلابشـة (317هـ-929م) عـلي حيـاة هادئـة مطمئنـة لجاليـات عربيـة اسـلامية في بـلاد المريـس. ويـري دي فيـار أن تنقـل الجماعـات العربيـة المختلفـة بـين منطقـة مريـس وأرض البجـا كان أمـرا مألوفـا، بدليـل وجـود كتابـات عربيـة بالخـط الكـوفي عـلي جـدران قلعتـين مـن ديـر يهيـب بالقـرب مـن منجـم للذهـب في هـذه المنطقـة. ويرجـع تأريـخ هـذه الكتابـات الي القـرن العـاشر الميـلادي

(982-983م)، فضلا عن كتابات أخري في نيزاري جنوب دير يهيب يرجع تاريخها لنفس هذا العهد.

وشهدت هذه الفترة سفارة ابن سليم الأسواني هذا، والذي أرسله القائد الفاطمي جوهر الصقلي الي بلاد النوبة ليدعو الملك قيرقي (جورج الثاني) الي الدخول في الاسلام (الشيخ:318:2002). وتعتبر سفارة ابن سليم أول دعوة رسمية لاسلمة ملك النوبة المسيحي في الربع الاخير من القرن العاشر الميلادي، حيث ذكر بوجود مسجد صلي فيه مع ستين مسلما صلاة عيد الأضحية (Soghayroun1:2001:15)، وكان ابن سليم شيعي جاء في أعقاب انتصار الفاطميين علي مصر مرسلا من قائد الفاطميين جوهر الصقلي، ومع أن الأخبار لم ترد الينا عن غرض تلك السفارة الا أنه من البديهي أنها كانت بغرض التعرف علي البلاد وقرار ضمها وعدم ضمها للدولة الفاطمية . تاريخيا لم تصبح بلاد النوبة جزءا من الامبراطورية الفاطمية ولكنها تمتعت بعلاقات حسنة ومستقرة مع مصر الفاطمية طياة فترتها.

علي كل، زاد رسوخ قدم الجماعات العربية ببلاد النوبة السفلي فيذكر ابن سليم: (أن المسلمون يتمتعون بكامل استقلالهم في هذه المنطقة والتي استقروا فيها حيث توجد أملاكهم، فضلا علي أن كثير من النوبيين انفسهم اعتنقوا الاسلام رغم جهلهم باللغة العربية، والراجح أن العرب تعلموا لغة النوبيين بعد أن اختلطوا بهم واستطاعوا بذلك نشر ثقافتهم الاسلامية في النوبة.

وتدل الأبحاث الآثارية التي قام بها دي فيار في وجهة مريس علي تاثير هذه الجماعات العربية في النوبيين، اذ عثر في مقابر نوبية علي كتابات باللغة القبطية تحمل تاريخا مزدوجا من التقويمين القبطي والهجري، وترجع معظم هذه الكتابات الي القرن العاشر الميلادي (906-907م) ثم تظهر بعد هذا كتابات من هذا النوع أيضا لا تحمل سوي التاريخ الهجري، وهي جميعا ترجع الي نفس هذا القرن.

كما ويتضح كذلك مما جاء في ابن سليم عن مملكة علوة أن المسلمين يختلفون اليها للتجارة، ولا بد أن عددهم كان كبيرا بدليل أنه اصبح لهم رباط خاص بهم يأوون اليه (مسعد2: المصدر السابق:129-130).

وفي مناطق الشايقية تشير كثير من الروايات الي ظهور مملكة الدفار والتي يزعم أهلها أنهم فرع من الجعليين يسمي بالبديرية ولهم العديد من الملوك من ذرية أولاد جابر، أشهرهم عبدالرحمن الذي ازدهرت في عهده عدة مساجد في بلاد الشايقية وكورتي والدفار ولهم نحاس، كما أن مملكة دفار تعتبر واحدة من أقدم الممالك

الاسلامية التي قامت في السودان منذ بداية القرن الثالث عشر الميلادي، وقد كانت تشمل مملكة الخناق ومملكة مقاصر والتي خضعت لملوك الدفار لصغرها (محي الدين:1972). الا أن الأمر يحتاج لمزيد من الدراسات والبحوث.

وفي أقصي الشمال تشير بعض الروايات بشهود ميلاد امارة عربية قوية اتخذت من اسوان مركزا لها، وامتذ نفوذها جنوبا في أرض المريس، وقد انشأ هذه الامارة زعيم من عرب ربيعة بن أبو مروان بشر بن اسحق (وصارت أرض مريس معظم سكانها مسلمين). ويحتاج هذا الأمر الي اجراء تكثيف للدراسات المختلفة بخصوص تأثير العرب علي تلك المنطقة وعلي النوبيين بصفة خاصة.

وغرباً اتجهت مجموعات بدوية رعوية وانتشرت عبر السافنا حوالي (1000م) وبدأ تكوين الدويلات في دارفور في القرن الثالث عشر الميلادي حيث نجد أدلة المساجد القديمة في غرب السودان من مواقع عين فرح وأوري والتي أرخت إلى القرن الثالث عشر الميلادي. ونسبة لقلة المصادر نجد أن تاريخ دارفور السياسي غامض، خاصة الفترة التي سبقت قيام سلطة الفور، ومن الثابت أن الفترة التي سبقت الفور حكامها كانوا من الداجو والتجر، بالاضافة الي تسلط وهجرة بعضا من القبائل العربية من مناطق شمال شرق دارفور وانتشار كثير من مظاهر الثقافة الاسلامية من الشمال والجنوب.

ترجح الروايات الوطنية بأن أقدم سكان دارفور كانوا هم الداجو، وهم أول من اسس دولة دارفور، ويقال أنهم من القبائل الحامية والتي استوطنت دارفور، أتوا ضمن القبائل الوافدة من الجزيرة العربية وهنالك بعض من الروايات تقول بأنهم أتوا من شمال افريقيا وبالتحديد من تونس (جبريل:2013 :13).

وفي أوائل القرن الثالث عشر الميلادي كانوا يحكمون دارفور، الي أن فقدوا السيطرة علي الطرق التجارية للتنجر، والذين بسطوا سيطرتهم علي المنطقة الوسطي في نحو القرن الخامس عشر الميلادي. وما زال الداجو يسيطرون علي المنطقة الواقعة شرق وجنوب شرق جبل مرة علي الرغم من تفرقهم وانحسارهم. وتم العثور علي بقايا اثار ترجع لهم، كما لم يكن في يوم من الأيام عاصمة واحدة ثابتة بل كانوا يتنقلون من موقع لاخر (حسن3: 2003 :92). خلف الداجو كم هائل من التراث، مثل ابار السواني والتي عثر عليها في منطقة جبل الداجو، وهنالك اثار أخري لكن تحتاج لمزيد من البحث والدراسة خاصة من قبل البعثات الآثارية. وقد عرف الداجو بحبهم وشغفهم بالموسيقي والطرب، لذا خلفوا لنا من الثقافة المادية الكثير مثل الالات الموسيقية من الخشب الأبنوسي والنقارة باحجامها المختلفة (جبريل:المصدر المذكور:14).

ومـن أهـم الدلائـل الأثريـة والتي لعبـت التجـارة دوراً هاماً فيهـا هي الأدوات المسـتوردة، خاصـة الفخـار الإسـلامي والـذي وجـد في مواقـع مختلفـة مثـل كلوبنـارتي (Adams: 1998)، قـصر إبريـم (Adams: 1994)، دنقـلا العجـوز وسـوبا (Welsby: 1993)، سـنار (Soghay-roun،1 :1982)، باضـع وعيـذاب (Kawatoko: 1993)، ودرهيـب (Castiglioni: 1994).

عـلى كلٍ نجـد أن أهـم مـا تتميـز بـه هـذه المرحلـة هـي دخـول العـرب واتصالهـم بالنوبيـين، حيـث لم يكـن البحـر الأحمـر في وقـت مـن الأوقـات حاجـزاً يمنـع الاتصـال بـين شـواطئه الآسـيوية والعربيـة وشـواطئه الأفريقيـة، وفي ذلـك يقـول عـوض: (وحسـبنا أن نقـرر أن البـاب الشرقـي مـن السـودان كان واحـدا مـن الأبـواب التـي دخلـت منهـا الدمـاء العربيـة ومعهـا الثقافـة العربيـة الي السـودان، وأن تأثيرهـا لم يكـن مقصـورا عـلي الجهـات التـي تقابـل الجزيـرة العربيـة بـل تجاوزتهـا الي السـودان الاوسـط والسـودان الغـربي أيضـا) (عوض:المصـدر المصـدر المذكـور:160). إلى جانـب الطريـق الشـمالي وهـو طريـق بـرزخ السـويس فقـد لعـب دوراً خطيراً في تاريـخ العلاقـات بـين سـكان الجزيـرة العربيـة وسـكان وادي النيـل الأدنى منـذ فجـر التاريـخ، وقـد كانـت التجـارة أهـم وسـيلة لهـذا الاتصـال. وقـد ازدادت موجـة هـذه الهجـرات العربيـة الكـبرى خاصـة بعـد حملـة عمـرو بـن العـاص عـلى مـصر 639م، والتـي شـقت طريقهـا مـن قلـب الجزيـرة العربيـة إلى أفريقيـا عـبر بـرزخ السـويس، حيـث أخـذت القبائـل العربيـة المختلفـة الهجـرة إلى مـصر بانتظـام.

المرحلـة الثانيـة 1300م1500-م (680-920هـ) :

تزامنـت هـذه المرحلـة تاريخيـاً مـع انتهـاء مملكـة المقـرة المسـيحية وقبـل قيـام دولـة الفونـج الإسـلامية. وهـي مـن الفـترات التـي لم تجـد الاهتـمام الـكافي مـن قبـل دارسي الفـترة المسـيحية الذيـن يتوقفـون عنـد إسـلام دنقـلا، ودارسي فـترة الفونـج الذيـن يركـزون عـلى بدايـة ظهـور مملكـة الفونـج في أوائـل القـرن السـادس عـشر الميـلادي.

واللافـت للانتبـاه هنـا أن الدولـة المملوكيـة في مـصر سـعت إلى التدخـل المبـاشر في الشـئون الداخليـة لمملكـة المقـرة، حيـث لم تكتـف باسـتلام البقـط المفـروض عـلى النوبيـين فحسـب، بـل عملـت عـلى عـزل وتعيـين الملـوك النوبيـين وفقـاً لمصالحهـم الخاصـة وذلـك لاعتبـارات كثـيرة أهمهـا تأمـين حـدود مـصر الجنوبيـة.

وخـير مثـال لهـذا التدخـل بعـد هزيمـة الملـك داؤود الـذي تـم اسـتبداله بملـك آخـر يدعـى شـكنده، وتأكيـداً لولائـه للمماليـك فقـد أقسـم بقسـم مسـيحي قبـل فيـه عـدداً مـن الالتزامـات أهمهـا قبـول تبعيتـه للسـلطان المملـوكي (كروباتشـيك:المصدر السـابق: 413).

بعد ذلك أصبحت المقرة دولة تابعة لدولة أخرى قوية وهي دولة المماليك ولم تستطيع أن تعيد نظامها الداخلي. وبرغم ذلك لم يستسلم النوبيون لهذه السيطرة فكثيراً ما كانوا ينزعون إلى الاستقلال عن سيطرة المماليك فأرسلت إليهم حملات أخرى لإخضاعهم الشيء الذي أدى لهروب كثير من ملوك النوبة إلى مملكة الأبواب المجاورة خوفاً من بطش المماليك، حيث نجد الملك كرنبس (1312-1315م) والذي حاول التخلص من التبعية لسلطة المماليك فتم إرسال حملة إلى بلاد النوبة 1315م إلا أنها لم تستطيع النيل من كرنبس، ولا تشير المراجع – كما هي العادة - إلى عودة هذه الحملة إلى مصر، ولعلها بقيت في دنقلا إلى أجل غير مسمى لتقوم على تنفيذ أوامر السلطان فيما يتعلق بتنصيب ملك جديد لبلاد النوبة (مسعد1:المصدر السابق: 165).

وهنا تبدو ظاهرة جديدة في الواقع هي نقطة التحول في تاريخ بلاد النوبة، ذلك أن من الأسرى النوبيين الذين أتت بهم الحملات الحربية السابقة على بلاد النوبة عدد كبير من الأمراء وأفراد البيت المالك وبعض المطالبين بالعرش النوبي، حيث اتجهت سياسة الدولة المملوكية إلى استمالتهم لتعيينهم ملوكاً عليها ولاسيما بعض الذين أسلموا منهم، حيث نجد الملك النوبي سيف الدين عبد الله برشمبو، والذي اعتلى العرش في دنقلا محددًا لبداية الاعتناق الرسمي للإسلام في دنقلا. وقام برشمبو بتحويل جزء من القصر لمسجد 1317م حيث وجد نقش لبرشمبو كتب عليه ما معناه (تحويل هذا المكان إلى مسجد للصلاة) (مسعد1:المصدر السابق:167).

مسجد دنقلا العجوز - تصوير الباحث

ومـن بـين المشـاكل الداخليـة ادعـاء كنـز الدولـة، أمـير بنـي كنـز، حقـه في الملـك، باعتبـار انتقـال الملـك إليـه بعـد خالـه كرنبـس. إضافـة إلى أنـه مسـلم ولكـن لم يجـد التأييـد مـن ملـوك دولـة المماليـك، بـل وجـد التأييـد مـن قبـل النوبيـين والعـرب. وقـام بنـي كنـز بمحاربـة وقتـل الملـك برشـمبو. وربمـا يرجـع السـبب في عـدم تأييـد المماليـك لكنـز الدولـة هـو خشـية المماليـك مـن قيـام تحالـف أكـثر اتسـاعاً حـول حاكـم مـن أصـل عـربي ونـوبي في أنٍ واحـد الـشيء الـذي يـؤدي إلى زوال نفـوذ المماليـك.

وعمومـاً أوردت المصـادر التاريخيـة أن الـصراع الداخـلي عـلى السـلطة قـد ازداد بصـورة كبـيرة. واسـتمر التدخـل العـربي بصـورة واسـعة ولعب بنو كنـز دوراً كبـيراً في ذلك واسـتطاعوا السـيطرة عـلى دنقـلا حيـث التجـأ الملـك إلى (قـصر الضـو) في المريـس وتركـت دنقـلا خرابـاً، وأضحـى الجـزء الأكـبر مـن المملكـة خاضعـاً للفـوضى والتدهـور (مسـعد1:المصدر السـابق:170).

إن بـلاد النوبـة منـذ الربـع الأول مـن القـرن الرابـع عـشر الميـلادي لم تعـد وطـن النوبيـين فحسـب، بـل شـاركهم فيهـا قبائـل عربيـة كثـيرة مـن غـير بنـي كنـز، ومـن هـذه القبائـل بنـي بكـر، بنـي عمـر، بنـي شـيبان وبنـي هـلال وغيرهـم. وربمـا كان الدافـع لهـم عـلى البقـاء في بـلاد النوبـة شـدة الضغـط المملـوكي عليهـم في مـصر. كـما نجـد عـرب جهينـة هاجـروا إلى بـلاد النوبـة بعـد أن قطعـت الجزيـة عـن النوبيـين لإسـلامهم.

وقـد ذكـر (كروفـورد) أنـه قـد ينسـب إلى عـرب جهينـة ضيـاع كثـير مـن المظاهـر التـي امتـازت بهـا الملكيـة النوبيـة، منهـا أن اللغـة النوبيـة لم تعـد لغـة الكتابـة بـل ظلـت تمثـل لغـة التفاهـم بـين النوبيـين، وينسـب إلى عـرب جهينـة كذلـك تخريـب كثـير مـن الكنائـس النوبيـة (Crawford: 1951: 27). وقـد ورد في المصـادر تدفقهـم الي الحبشـة والي غـرب السـودان بعـد قـرن مـن اسـتغلالهم في النوبـة.

وكـما هـو معلـوم بأنـه ليـس لدينـا مـن الدلائـل الماديـة مـا يشـير إلى انتشـار الإسـلام كان عـلى حسـاب المسـيحية أو عـلى حسـاب المعتقـدات الدينيـة المحليـة الأصيلـة، حيـث الواضـح أن النوبـة تخلـوا عـن مسـيحيتهم مـن غـير أن يؤثـر ذلـك عـلى معتقداتهـم الدينيـة الأصيلـة ودخلـوا في الإسـلام وهـم محتفظـون بنفـس المعتقـدات. وهنالـك ملاحظـة حيـث مجـيء المسـيحية بلسـان غريـب عـلى أهـل السـودان جـاء الإسـلام كذلـك بلسـان غريـب.

ولكـن هنالـك فـرق واضـح يجـب الإشـارة إليـه بـين انتشـار المسـيحية وانتشـار الإسـلام كأديـان سـماوية جديـدة عـلي السـودان. وهـو أن المسـيحية جـاءت دون أن يكـون معهـا

أو تجلب عنصراً بشرياً يطلب الاستيطان في بلاد السودان، عكس الإسلام الذي وفدت معه مجموعات عربية استوطنت هذه النواحي وجعلت من نفسها الحامي الأول للدين الذي أتوا به. على هذا اختلف رد الفعل الحضاري والثقافي لهذا الوافد الجديد.

غير أن غلبة الثقافة الإسلامية العربية على الثقافة النوبية الأفريقية لم تكن سهلة، وذلك أن الإسلام لم يصبح دين الدولة الرسمي، كما وأن اللغة العربية لم تصبح لغة الدولة الرسمية حتى بداية القرن السادس عشر الميلادي مع قيام دولة الفونج. هذا أدى إلى تهيئة الفرصة للثقافة النوبية الأفريقية أن تسترد الكثير من حيويتها وقدرتها بعد حروبات المماليك الطويلة في القرن الثالث عشر الميلادي. وأصبح المجال مجال صراع حضاري ثقافي بين الحضارة النوبية الأفريقية والحضارة الإسلامية العربية. وكان السلاح الأول والأساسي للعرب المسلمين هو فن الكتابة والقراءة والذي كان السكان المحليون قد فقدوه في عصر الاضمحلال الحضاري في نهايات العصر المسيحي. أما سلاح السكان المحليين الأول والأساسي في هذا الصراع هو الأرض التي يمتلكها السكان.

فقد استقطع الحكام المحليون مساحات من الأرض لشيوخ الطرق الصوفية ومعلمو الدين الإسلامي مقابل الخدمات التي يقوم بها في الخلاوي والمساجد إلى جانب عمل الشيخ كاتباً أو قاضياً لدى الملك أو الحاكم. لكننا نجد أن سلاح الأرض قد فقد أهميته عندما انتشر الإسلام والعرب في بلاد السودان الواسعة وخاصة في أرض البطانة وبلاد كردفان ودارفور (علي عثمان:المصدر السابق: 68-69).

وكما ذكرنا من قبل وبعد أن انكسر الحاجز السياسي، تدفق العرب بكميات كبيرة من الصحراء الشرقية ووادي النيل وتوغلوا جنوباً للبطانة والجزيرة مثل جهينة والكواهلة إلى جانب توغلهم في كردفان ودارفور وبدأ وصول العلماء من الجزيرة العربية في مهام نشر وإصلاح الدين الإسلامي حيث أصبحت الحاجة ماسة إلى ذلك ومن هؤلاء غلام الله بن عائد الذي قدم من اليمن من منطقة يقال لها الحليلة في أواسط القرن الرابع عشر الميلادي، والذي كان أحد الذين ساهموا مساهمة فاعلة في نشر وتعليم الناس علوم الدين، بعد أن قرر بالبقاء في مدينة دنقلا مساهمة منه في نشر تعاليم الاسلام، اذ هاله من رأي من جهل لانعدام العلماء والقراء، حيث قام بتعمير المساجد وقراءة القرآن واشتغل بتعليم الناس علوم الدين. وقد تخرج على يده الكثيرون وساروا على نهجه في نشر وقراءة علوم الدين بين الناس في جميع أنحاء البلاد.

إلى جانب الشيخ غلام الله كان هنالك العديد من العلماء والمشايخ الذين أثروا البلاد بعلمهم ومعرفتهم الدينية الثرة وقاموا ببناء الخلاوي والمساجد. منهم علي سبيل المثال الشيخ حمد ابو دنانة صهر الشيخ عبدالله بن محمد الجزولي الشاذلي، حيث استقر بالمحمية ولعله أول من نشر الطريقة الشاذلية في السودان. وبالرغم من مجهودات هؤلاء العلماء الا أننا نجد حالة من التيه والضلال ما زالت موجودة حتي نهاية مملكة علوة. وقد وصف يوحنا السوري تلك البلاد بأن سكانها: (ليسوا بمسيحيين ولا يهود ولا مسلمين ولكنهم يؤملون أن يظلوا مسيحيين). ومن الثابت أن الديانة المسيحية لم تنته بانتهاء مملكتي المقرة وعلوة، بل استمرت في مظاهرها الي وقت قريب، كما تدل عليها الحفريات الآثارية.

ومع ظهور المد العربي والثقافة العربية الإسلامية أصبح السكان في معظم شمال وشرق السودان ثنائي اللغة، حيث نجد النوبة والبجة يتحدثون لهجات محلية ويتخذون من العربية لغة العلم والدين، وقد انتشرت العربية من البحر الأحمر شرقاً إلى تشاد غرباً ومن أسوان شمالاً إلى شمال خط 10 شمال في الجنوب (حسن1: 1973: 134).

وقد كشفت الدلائل الآثارية في الغرب عن وجود قصور ومساجد مملكة التنجور إحدى ممالك الغرب القوية والتي ساهمت في نشر الثقافة الإسلامية، كما وجدت الأدوات المستوردة وخاصة الفخار الإسلامي. وهنالك اختلاف للاراء حول أصل التنجر ومنشأ مملكتهم، حيث يزعم البعض أنهم عباسيون من دنقلا، واخرون يزعمون أنهم من قبيلة بني هلال احدي القبائل العربية والتي نزحت من مصر للسودان ومنها الي سهول تلك المنطقة، ويرجح البعض بأن لهم صلة بالبديات (احد فروع قبيلة التيبو). وفي فترة من فترات تلكم المنطقة الغامضة (لقلة المصادر) استطاع التنجر بسط سيطرتهم علي دارفور واجزاء من وداي. وفي أوج ازدهار وعظمة تلك المملكة في حوالي القرن الخامس عشر الميلادي أخذ الاسلام في الانتشار ولكن ببطء شديد وعلي أيدي بعضا من العرب. وكما هو معلوم دخول الاسلام عن طريق الهجرات العربية، ووفود موجات هجرة عربية الي سهول دارفور خاصة الأجزاء الجنوبية منه، من أشهرها قبيلة «البقارة» الذين ينتمون الي جهينة احدي البطون العربية الكبيرة التي وفدت الي السودان، ونشأت بينهم وبين السكان المحليين صلات وعلاقات ومصاهرات حتي غلب السواد علي بشرتهم (سحنتهم) من هؤلاء نجد المسيرية والرزيقات والهبانية وبني هلبة. وقد عاصروا دولة الداجو في جنوب جبل مرة، ثم بسطوا نفوذهم علي دار وداي بتشاد. وقيل في هذا أن التوسع الذي أحرزوه في فترة من الفترات أدي الي

اضعاف مملكتهم في دارفور (جبريل:2013: 13) . علي ذلك اغتنم الفور هذه الفرصة في أواخر القرن السادس عشر الميلادي استطاعوا انتزاع السلطة من الداجو والتنجر (حسن3: المصدر المذكور:92). ويقال أن عهد التنجر كان اسلاميا، ومما يؤكد ذلك وجود بقايا جوامع بمدينة (أوري) و (عين فرح التي بها قصر السلطان شاو دور شيد ومسجده المبني من الطوب الأحمر) ومناطق أخري بشمال دارفور. كما توجد أوقاف وأطيان بالمدينة المنورة باسم التنجر وباسم ملكهم احمد بن رفاعة المشهور ب(شاو دور شيد)، وقد عرف التنجر بالحكمة والمرونة في تصريف شئون الدولة. تم بناء بناء مسجد أوري من الصخور وما زالت انقاضه باقية حتي اليوم، كما اشتهرت الدولة ببناء المنازل علي نسق التخطيط المنتظم حيث الطرق المرصوفة والمدن المخططة. اشتهر التنجر بالدين وحبهم له، فكانوا لهم علماء بارزين في الفقه وحفظ القران وأئمة ودعاة، وقد أرسوا فكرة الأوقاف الاسلامية، وقد تبعهم سلاطين الفور في ذلك (جبريل:المصدر السابق:14).

أما مناطق كردفان والتي تقع بين مملكتي الفونج والفور، لا نكاد نعرف شيئا عن تاريخ تلك المنطقة قبل القرن السادس عشر الميلادي (أي قبل سيطرة دولة الفونج علي زمام الأمور في البلاد)، لكن علي أثر اندفاع الموجات العربية خاصة في الوسط مما أدي لسقوط مملكة المقرة وعلوة المسيحيتين، ساعد ذلك علي استقرار تلك المجموعات في سهول الجزيرة وكردفان. وكما هو معلوم فقد أعقبت هجرة العرب الذين وصلوا الي مناطق من سهول كردفان استقرار عددا منهم، ثم بعد ذلك أدي الي اندماج وتزاوج أعدادا منهم مع السكان المحليين (الوطنيين) وقد كان ذلك خلال القرن الخامس عشر الميلادي.

ومن أهم القبائل العربية التي اقترن اسمها بتلك المنطقة أولاد حميد من الحوازمة وكنانة والكواهلة والهبانية. وبوفود هذه القبائل ونزوحهم مع السكان المحليين بدأ الاسلام والثقافة العربية الاسلامية في الانتشار في تلك المناطق وعلي أيدي تلك القبائل.، وربما بعد ذلك انتشر الاسلام الي باقي المناطق الاخري المجاورة لهم مثل جبال النوبا.

علي كل، ظهرت مملكة تقلي في تلك المنطقة في تاريخ يصعب تحديده، لكن تشير بعض الروايات بظهور هذه المملكة عقب مجئ أحد «الفقرا» ويدعي محمد الجعلي، قادما من الشمال من ديار الجعليين في مطلع القرن السادس عشر الميلادي، وربما يكون محمد هذا هو «الغريب الحكيم» . وحتي أواخر القرن الخامس عشر الميلادي

لم يكـن هنالـك أي ذكـر لتلـك المملكـة في المصـادر، لكـن زاع صيتهـا بعـد ذلـك (القـرن السـادس عـشر الميـلادي) (حسـن3: المصـدر السـابق:112).

أمـا مملكـة المسـبعات فهـي مثـل سـابقتها (تقـلي) لم يكتـب عنهـا الكثـير، وكل مـا ذكـر عنهـا كان ضمـن اشـارات عرضيـة أو لتأثيرهـا بسـبب أو باخـر مـع علاقاتهـا بدولـة الفونـج أو الفـور، حيـث كانـت مسـاعي الدولتـين السـيطرة عليهـا.

كل الروايـات ترجـح بـأن القبائـل العربيـة قـد وفـدت الي تلـك المناطـق خـلال القرنـين الخامـس عـشر والسـادس عـشر الميلاديـين واسـتقرت هنـاك، ومـن أولي القبائـل التـي اسـتقرت هـي قبيلـة الغديـات (خليـط مـن العـرب والنوبـا والفونـج) وبسـطوا نفوذهـم عـلي البديريـة والجوامعـة. لكـن كل مـن دي كادلفـان ودي بروفـري أشـارا بـأن كردفـان كانـت منـذ القـدم تحـت سـيطرة الداجـو والتنجـر، وأن التنجـر كانـوا اخـر حـكام وثنيـين لكردفـان، وأن ذكراهـم ظلـت عالقـة في الأذهـان، وأن أحمـد المعقـور العبـاسي نجـح في نحـو عـام 1446م في بسـط نفـوذه عـلي كل مـن دارفـور وكردفـان. كـما تبـين احـدي الروايـات بـأن كردفـان ظلـت منـذ أواسـط القـرن الخامـس عـشر الميـلادي تحـت سـيطرة العبـدلاب (حسـن3: المصـدر السـابق:117-122).

ومـن خـلال المسـح الآثـاري لمنطقـة شـمال كردفـان التابـع لقسـم الآثـار جامعـة الخرطـوم بقيـادة د.هويـدا محمـد ادم وفي موسـمه الاخـير (2014-2015م) ومـن خـلال الروايـات الشـفاهية والبقايـا الآثاريـة التـي وجـدت بهـا مـن مبـاني جنائزيـة (مقابـر) وبقايـا قصـور بنيـت مـن الطـوب اللـبن والطـين تـم الانتبـاه لوجـود مملكـة يكتنفهـا كثـير مـن الغمـوض عرفـت بمملكـة «الغديـات» (هويدا:تقريـر المـشروع:2015).

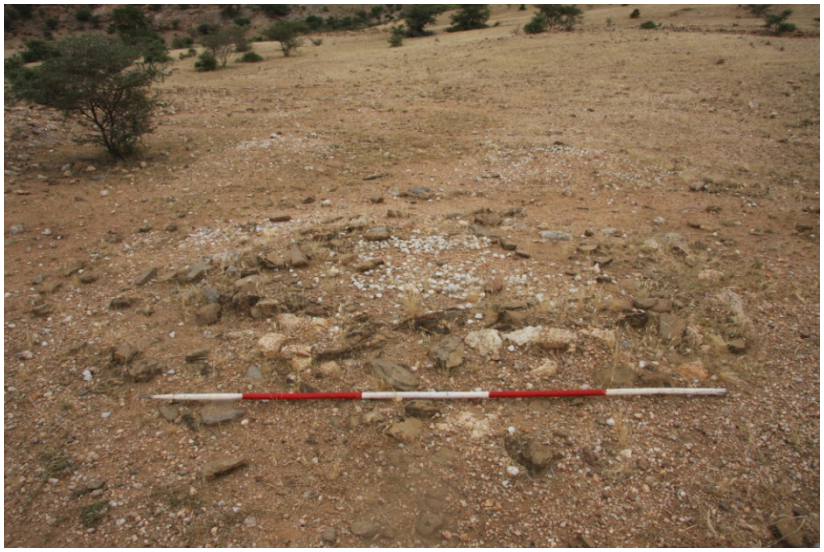

مقابر مملكة الغديات - تصوير الباحث

بقايا مبني (قصر) من الحجارة والطين
تصوير الباحث

لكـن عمومـا تشـكلت قبيلـة الغديـات في زمـن غـير محـدد عـلي وجـه الدقـة، ومـن المرجـح أن يكـون هـذا التشـكيل بطيئـا منـذ دخـول القبائـل العربيـة الاسـلامية الي السـودان، ومـن ثـم تكونـت بعدهـا مشـيخة الغديـات في كردفـان في الفـترة مـا بـين

(854/1450هـ-1237/1821هـ) تقريبا (جباد: 2013: 2). وتعتبر هذه الفترة من الفترات الغامضة والمجهولة للمنطقة.

تعددت الروايات حول اصل قبيلة الغديات، الرأي الأول يقول أن الغديات هم خليط من العرب والنوبا والفور (مكمايكل)، الرواية الثانية تشير الي أن الغديات في الواقع هم تجمع لفلول سكان سلطنة المسبعات الذين ينتسبون الي فور الكيرا وأنهم لاذوا بالفرار حين تبعثرت مملكتهم ورحبت بهم قبيلة الجوانعة فصاروا بطنا عريقا فيها، رواية ثالثة تنسب الغديات الي الاصل الجعلي (جباد:المصدر السابق: 50-55).

من أكثر المشاكل التي واجهت تاريخ هذه المملكة (المشيخة) أن المؤرخين الغربيين اعتبروا قبيلة الغديات جزءا من قبيلة الفونج وأن وصولهم الي كردفان ما هو الا هجرة من هجرات الفونج في القرن السادس عشر الميلادي. ونجد أن الفرنسيان (دي كادلفان-ودي بروفري) ما كتبوه عن المنطقة والتي ترجمها الي الانجليزية اوفاهي في مجلة السودان في رسائل ومدونات كانت معلوماتها عن كردفان متضاربة وتواريخها غير دقيقة ذلك يرجع لاعتمادها علي الروايات الشفاهية (جباد:المصدر السابق:12).

ومن خلال الروايات التاريخية التي جمعت عن مملكة الغديات نجد أنها من أولي القبائل العربية التي استوطنت كردفان، مكونة أول سلطة سياسية وادارية والتي تمثلت في مشيخة الغديات بالتحالف مع مشيخة العبدلاب، والتي يقول عنها محمد صالح محي الدين في كتابه مشيخة العبدلاب (بأنها أول حكومة عربية اسلامية خالصة لا مكان للجدل في عروبتها في السودان) ثم أن مشيخة الغديات شكلت مع حلفائها العبدلاب التحالف الاسلامي الذي كون سلطنة الفونج الاسلامية سنة 1504م (صالح:1972: 11). لعبت مشيخة الغديات دور كبير في القضاء علي الوثنية والمسيحية في كردفان القديمة، حيث ساد الاسلام والعروبة في كردفان وصارت دولة الاسلام.

ونجد أن اهمال تاريخ مملكة الغديات وعدم كتابته أدي الي ضياع تاريخ كردفان واعتبارها اقليم لا تاريخ له تتجاذبه قوتان سلطنة الفور في الغرب والفونج في الشرق. ومن الملاحظ كذلك أن قبيلة الغديات هذه لم تسلم من اسطورة «الغريب الحكيم».

علي كل، يظل الاقليم الغربي (كردفان ودارفور) من الأقاليم التي تحتاج الي كثير من الدراسات والبحث والتقصي، وحتي الذي عرف عنه كان ضمن روايات شفاهية فيها كثير من عدم الدقة وتحتاج الي مراجعات.

وهنالك ملاحظة جديرة بالاحترام وهي أن انتشار الدعوة الاسلامية قبل قيام مملكة الفونج كان صوريا، فقد اهتم الرواد الأوائل من المسلمين (التجار والبدو)

وهـم ممـن تنقصهـم المعرفـة الدقيقـة بالفقـه الاسـلامي وفي اسـتمالة المسـيحيين والوثنيـين الي الاسـلام، فركـزوا عـلي المبـادئ العامـة دون التفاصيـل، وقـد شـارك هاتـين الفئتـين بعـض العلـماء ولكـن جهودهـم ظلـت محـدودة (حسـن3:المصدر السـابق: 138).

خاتمة

لم يتم التعامل مع الآثار الاسلامية فى السودان بصوره جدية وربما يكون السبب عدم وجود دراسات كاملة عن تلك الفترة، خاصة أن التركيز كان علي قيام دولة الفونج باعتبارها أكبر كيان سياسي إسلامي تظهر في السودان.

كما وأن قلة المعلومات عن السكان والنشاطات التجارية وأماكن الاستيطان وغيرها من الأسباب التي صعبت عملية إعادة بناء الأنماط الاجتماعية والاقتصادية والديموغرافيه للمناطق المختلفة.

وعلى الرغم من ذلك ومن خلال الدراسات التي تمت فى مناطق شمال السودان (المحس – الخندق – الصحابة - ودنميري – دنقلا العجوز) إلي جانب سواكن فى شرق السودان والغرب كذلك (كردفان – دارفور) وعلى الرغم من قلتها إلا أنها تدل وبما لا يدع مجالاً للشك عن وجود فعلى للعرب المسلمين فى السودان فى تلك المناطق خلال تلك الفترة. وهكذا يتضح من الدلائل التاريخية والآثاريه أن العرب دخلوا السودان من القرن السابع الميلادي واستقروا في بعض المناطق وكونوا امارات (مشيخات) اسلامية فيها (السكراب – العمري – الدفار - تفلين - العبدلاب - الغديات).

عليه أصبحت الفترة من القرن السابع الميلادي وحتي القرن الخامس عشر الميلادي فى السودان، فترة أساسيه ومهمة لتأثيرها علي السودان تاريخيا وجغرافيا وديموغرافيا لأنها الفترة التي مهدت لانتصار الاسلام سياسيا في السودان كسلطة حاكمة وراعية بقيام دولة الفونج الاسلامية في بداية القرن السادس عشر الميلادي. كما ساهمت فى إعادة وفهم التاريخ النوبي الإسلامي بشكل متسلسل وبصوره خاصة وإعادة وترتيب التطور التاريخي فى السودان ككل بصوره عامة.

الخلاصــة :

عـلي الرغـم مـن أنـه لم يتـم التعامـل مـع الآثـار الاسـلامية في السـودان بصـورة جديـة كجـزء مـن مهـم مـن مصـادر دراسـة تاريـخ السـودان، إلا أنـه ومـن خـلال تلـك الدراسـة والتـي تمـت في منطقـة المحـس وقبلهـا في منطقتـي(دنقـلا العجـوز – الخنـدق – ودنمـيري - الصحابـة) في شـمال السـودان والبحـر الأحمـر (سـواكن) في شرق السـودان وغربـه (كردفـان ودارفـور) كذلـك (وعـلي قلتهـا)، والتـي أماطـت اللثـام عـن بعضـا مـن مميـزات الآثـار الاسـلامية في تلـك المناطـق خاصـة بعـد التحليـل لتلـك الآثـار والوصـول لتلـك المميـزات والتـي دلـت وبمـا لا يـدع مجـالاً للشـك عـن وجـود فعـلي ومكثـف للعـرب المسـلمين في تلـك المناطـق مـن السـودان وخـلال تلـك الفـترة.

ويعتـبر هـذا البحـث مـن المحـاولات المتكاملـة لدراسـة هـذه المناطـق (شـمال وشرق وغـرب ووسـط السـودان) خـلال تلـك الفـترة التاريخيـة الموغلـة في الغمـوض، إضافـة إلي نـدرة المراجـع وشـح المصـادر وقلـة المكتـوب عنهـا بحيـث لا تتفـاوت البضـع شـذرات أوردهـا بعـض الرحالـة خـلال زيارتهـم للمنطقـة والتـي كانـت قصـيرة وعابـرة، وبعـض الكتابـات القصـيرة التـي وردت مـن قبـل المؤرخـين، كـما وأن بعضـا مـن هـذه المناطـق كانـت كـماً مهمـلاً لايشـار إليهـا إلا مـن خـلال كتابـات وروايـات عابـرة وغـير متخصصـة. لكـن مـن خـلال هـذا العمـل وتلـك الدراسـة اتضـح أنهـا منطقـة متنوعـة المصـادر.

وقـد سـاهم البحـث في محاولـة علميـة مقـدرة فهـم التحـولات السياسـية والاقتصاديـة والتاريخيـة والثقافيـة التـي اكتنفـت السـودان في ذلـك الوقـت والتاريـخ، وقـد توصـل إلي أن الفـترة مـن القـرن السـابع الميـلادي وحتـي القـرن الخامـس عـشر الميـلادي كانـت عهـداً أو عـصراً للتحـولات الثقافيـة والحضاريـة والسياسـية وهـي الملمـح الأول والرئيـسي فيـما صـارت إليـه بـلاد السـودان حيـث سـاهمت في تشـكيل الواقـع السـياسي والدينـي والاجتماعـي عـلي سـودان اليـوم.

لقـد تنـاول البحـث في محاولـة جـادة بدايـات مظاهـر التحـول الثقـافي والدينـي في المنطقـة (المـد الصـوفي - المذهـب السـني) والتبايـن النسـبي بـين الشـخصية السـودانية المنتميـة إلي ارض الشـمال النـوبي الإسـلامي والشـخصية المنتميـة إلي الوسـط العربي الإسـلامي، والواضـح أن هـذا التبايـن ناتـج مـن مـوروث دولـة الفونـج والتـي تفتخـر بالطـرق الصوفيـة وشـيوخها وبالخلـوة الشـعبية، ومـوروث الإمبراطوريـة العثمانيـة الإسـلامية والتـي تفتخـر بالديـن السـني الإصلاحـي. وهـذا الوضـع السـياسي الدينـي جـاء إلي السـودان في فـترة مهمـة مـن تاريخـه، وهـي بعـد انتهـاء العصـور الوسـطي وقبـل بدايـة الدولـة السـودانية الحديثـة،

وهـذا يقودنـا إلي أهميـة هـذا البحـث في تأسـيس الشـخصية السـودانية المحليـة وابـرز اسـتمرارية العـادات والتقاليـد النوبيـة القديمـة واسـتمرارها، إلي جانـب اسـتمرار بعـض العنـاصر اللغويـة القديمـة عنـد السـكان الحاليـين في المنطقـة.

وبرهنـت الدراسـة عـلي الفائـدة العظمـي والتـي يمكـن أن يوفرهـا اسـتخدام علـم الآثار الوطنـي في إزالـة الغمـوض عـن هـذه الفـترة مـن تاريـخ المنطقـة و السـودان ككل. وقـد اثبـت هـذا المنهـج كفاءتـه وبـدا في مواجهـة السياسـات الخاطئـة التـي انتهجهـا علـماء الآثـار الأجانـب، وتصحيحهـا وتفسـير التغـيرات الأيدلوجيـة (الدينيـة) والسـكانية عـبر الحركـة الداخليـة للثقافـات التـي تكـون في وضـع اتصـال ببعضهـا، وهـذا أهـم محـور في هـذا المنهـج. وقـد أبـرزت المسـوحات الآثاريـة الـثراء الآثـاري مـن واقـع وجـود المخلفـات في العديـد مـن المواقـع الآثاريـة.

تمكـن البحـث مـن رسـم إطـار عـام لهـذه الفـترة وإبـراز شـخصيتها الحضاريـة الخاصـة في المنطقـة، مـن خـلال الدراسـة التـي تمـت فيهـا، عليـه أصبحـت الفـترة مـن القـرن السـابع الميـلادي وحتـي القـرن الخامـس عـشر الميـلادي في السـودان فـترة أساسـية في إعـادة وفهـم التاريـخ النـوبي الإسـلامي وإعـادة تركيـب التطـور التاريخـي في السـودان. وحتـى يتـم الوصـول للمعرفـة الكليـة والإلمـام التـام بتلـك الفـترة في السـودان لابـد مـن إجـراء المزيـد مـن الدراسـات التفصيليـة المتخصصـة لـكل هـذه الأوضـاع السياسـية، العسـكرية، الدينيـة، الاقتصاديـة والاجتماعيـة وإجـراء عمليـات تنقيـب علميـة دقيقـة ومكثفـة بهـا، ولابـد مـن وضـع اعتبـار خـاص لمعظـم المواقـع المهـددة مـن قبـل السـكان وكذلـك وقوعهـا بالقـرب مـن المواقـع السـكنية والزراعيـة وفيضـان النيـل وعـلي البحـر الاحمـر مـما يعرضهـا لدمـار كامـل ومسـتمر، وهـذا يقـود إلى اندثـار معظـم التفاصيـل المعماريـة والأدلـة الأثريـة الأخـرى ويجعـل فـرص دراسـة هـذه التفاصيـل محـدودة وذات فائـدة أقـل إن لم يتـم الإسراع وبأسرع فرصـة ممكنـة لدراسـتها قبـل أن تصـل لمرحلـة الدمـار الكامـل.

مـــوقف دراســة
الآثار الاسلامية في السودان

عـاني السـودان كثير مـن الاهـمال والمشـاكل التـي واجهـت دراسـة الآثـار بصـورة عامـة والآثـار الاسـلامية عـلي وجـه الخصـوص، خاصـة وكـما ذكرنـا بـان الاسـلام لـه مظاهـر مختلفة في المناطـق جنـوب الصحـراء والتـي تختلـف في مخلفاتهـا الماديـة عـن المناطـق التـي حكمـت بالخلافـة الاسـلامية، والتـي تعتـبر ضمـن المناطـق الهامشـية والتـي تقـع في الظـل بالنسـبة للامبراطوريـة العثمانيـة مثـلا.

ومـا كتـب عـن تلـك الفـترة (الآثـار الاسـلامية بصـورة عامـة والفـترة مـا بـين القـرن بالسـابع والخامـس عـشر الميلاديـين عـلي وجـه الخصـوص) يعتـبر قليـل جـدا مقارنـة بباقـي الفـترات الأخـري في السـودان، وحتـي الـذي كتـب مـن قبـل علـماء التاريـخ أو الآثـار أو حتـي المهتمـين بالـتراث يعتـبر اشـارات بسـيطة وعرضيـة ويتخللهـا كثـير مـن عـدم الدقـة والتفصيـل، فمثـلا معظـم مـا كتـب عـن تلكـم الفـترة كان عـن وجـود الممالـك المسـيحية والوجـود العـربي فقـط دون ذكـر لاشـارات عـن ممالـك اسـلامية قامـت في ظـل الممالـك المسـيحية كالسـكراب مثـلا في شـمال السـودان (المحـس).

اسنشـــراق المستقبـــل:

وحتـي يتـم الوصـول للمعرفـة الكليـة والالمـام التـام بفـترة دخـول الاسـلام في السـودان (الآثـار الاسـلامية) لابـد مـن اجـراء المزيـد مـن الدراسـات التفصيليـة المتخصصـة لـكل هـذه الأوضـاع السياسـية، العسـكرية، الدينيـة، الاقتصاديـة والاجتماعيـة واجـراء عمليـات تنقيـب علميـة دقيقـة ومكثفـة بهـا، ولا بـد مـن وضـع اعتبـار خـاص لمعظـم هـذه المواقـع المهـددة مـن قبـل السـكان وكذلـك وقوعهـا بالقـرب مـن المواقـع السـكنية والزراعيـة بالاضافـة الي عمليـات التعديـن العشـوائي للذهـب (الدهابـة) وفيضـان النيـل والبحـر الأحمـر مـما يعرضهـا لدمـار كامـل ومسـتمر، والـذي يقـود الي اندثـار معظـم التفاصيـل المعماريـة والأدلـة الأثريـة الأخـري ويجعـل فـرص دراسـة هـذه التفاصيـل محـدودة وذات فائـدة اقـل ان لم يتـم الاسراع وبـأسرع فرصـة ممكنـة لدراسـتها قبـل أن تصـل لمرحلـة الدمـار الكامـل (خاصـة المواقـع النيليـة).

مـا نحتاجـه وبسرعـة هـو تجميـع التواريـخ الشـفاهية والدراسـات الاثنوغرافية ودراسـة الثقافـة الماديـة الحاليـة وفحـص الوثائـق التاريخيـة وربـط كل هـذا بالعمـل الآثـاري.

أرجـو أن تسـهم هـذه الدراسـة كمحاولـة علميـة في فهـم التحـولات السياسـية والاقتصاديـة والتاريخيـة والثقافيـة التـي اكتنفـت السـودان في ذلـك الوقـت، وقـد اتضـح

الان أن الفـترة مـن القـرن السـابع وحتـي القـرن الخامـس عـشر الميـلادي كانـت عهـدا أو عـصرا للتحـولات الثقافيـة والحضاريـة والسياسـية وهـي الملمـح الأول والرئيـسي فيـما صـار اليـه بـلاد السـودان حيـث سـاهمت في تشـكيل الواقـع السـياسي والدينـي والاجتماعـي في سـودان اليـوم.

كـما نرجـو مـن المراكـز التـي تهتـم بالتاريـخ والثقافـة وبالتوثيـق (مركـز بحـوث ودراسـات دول حـوض البحـر الأحمـر - مركـز العـز بـن عبدالسـلام – مركـز الفيصـل – مركـز التنويـر المعـرفي –..الـخ) أن تتبنـي المشـاريع الميدانيـة لأقسـام الآثـار والتاريـخ والـتراث والفلكلـور المختلفـة والتـي تسـهم وبصـورة كبـيرة في الكشـف عـن كثـير مـن مجريـات الأحـداث الغائبـة في تاريخنـا العظيـم.

المراجع باللغــة العربية:

- الياس2، احمد حسين – السودان، الوعي بالذات وتأصيل الهوية – الجزء الثالث- علاقات السودان بالمسلمين في مصر بين القرنين 7-15م-2012م.
- الشيخ، أحمد المعتصم – التاريخ الثقافي والحضاري لمنطقة التكاكي في الفترة 1280-1480م – رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه – قسم الإثار – كلية الآداب – جامعة الخرطوم – مايو 2002م، غير منشور.
- الصديق، عبدالهادي – الحزام السودانية، جغرافيته وتاريخه الحضاري – مركز عبدالكريم ميرغني الثقافي – 2005م.
- النور، اسامة عبدالرحمن – دراسات في تاريخ السودان القديم – مركز عبدالكريم ميرغني الثقافي – الخرطوم -2006م.
- الزاكي، عمر حاج – مملكة مروي، التاريخ والحضارة – منشورات سد مروي – 2006م.
- بكر، محمد ابراهيم – تاريخ السودان القديم – مكتبة الانجلو المصرية – القاهرة 1998م.
- حاكم، احمد محمد و بونيه، شارلس – كرمة، مملكة النوبة – ترجمة د.صلاح الديم محمد احمد – الخرطوم -1997م.
- حسن1، يوسف فضل – مقدمة في تاريخ الممالك الإسلامية في السودان الشرقي – الخرطوم – 1973م.
- حسن2، يوسف فضل- «دراسات في تاريخ السودان –ج1 الخرطوم – 1975م.
- حسن3، يوسف فضل – مقدمة في تاريخ الممالك الاسلامية في السودان الشرقي – الخرطوم- 2003م.
- جباد، محمد بابكر احمد – تاريخ كردفان من خلال مشيخة الغديات في الفترة ما بين 1450-1899م – المكتبة الوطنية – الخرطوم – 2013م.
- جبريل، عبدالله علي – من تاريخ مدينة الفاشر – المكتبة الوطنية – الخرطوم- 2013م.
- خوجلي، مصطفي محمد – مفهوم مصطلح السودان عبر التاريخ – دراسات افريقية – مجلة بحوث نصف سنوية – العدد23 – 2000م.
- سعيد، عبدالرحمن ابراهيم – الآثار العثمانية في منطقة المحس 1584-1821م –

رسـالة ماجسـتير – قسـم الآثـار – جامعـة الخرطـوم -2005م.
- سـليم، حسـن – تاريـخ السـودان المقـارن الي اوائـل عهـد بعانخـي –دار القوميـة العربية للثقافـة والنـشر – بـدون تاريخ.
- صالـح، محـي الديـن محمـد – مشـيخة العبـدلاب واثرهـا في حيـاة السـودان السياسـية (1236/910هـ) 1504-1821م – الـدار السـودانية – 1972م.
- شقير، نعوم – جغرافية وتاريخ السودان – بيروت – 1972م.
- طـه، فـدوى عبـد الرحمـن عـلي –أسـتاذ الأجيـال عبـد الرحمـن عـلي طـه 1901-1969م بـين التعليـم والسياسـة وأربجـي، دار الخرطـوم للنـشر – 2004م.
- فانتينـي، الأب جـورج – تاريـخ دخـول المسـيحية في المماللـك النوبيـة القديمـة والسـودان الحديـث – الخرطـوم – 1978م.
- فانسـينا، جـاك – الماثـورات الشـفاهية – ترجمـة د. عـلي محمـود – مطبعـة دار المعـارف – القاهـرة – 1981م.
- كروباتشـيك، ل-»النوبـة في نهايـة القـرن الـ13 حتـى فتـح الفونـج بدايـة القرن الـ 16-» تاريـخ أفريقيـا العـام، مجلـد 17، ص 398-422- أشراف ج بنـاني – اليونسـكو – 1981م.
- عبدالرحمـن، احمـد حسـين – مملكـة المقـرة وحضارتهـا، رؤيـة مـن واقـع المعطيـات الآثاريـة الجديـدة- رسـالة دكتـوراة مـن قسـم الآثـار – جامعـة الخرطوم-2009م-غـير منشـورة.
- عوض، محمد أحمد – السودان الشمالي، سكانه وقبائله – القاهرة – 1956م.
- مسعد1، مصطفى حمد – الإسلام والنوبة في العصور الوسطى – القاهرة – 1960م.
- مسعد2، مصطفى محمد – المكتبة العربية السودانية – القاهرة – 1972م.
- المسـعودي، عـلي بـن الحسـين بـن عـلي أبـو الحسـن – مـروج الذهـب ومعـادن الجوهـر – نـشر دي ميـار ودي كورتـل -9 أجـزاء – باريـس-1877م.
- تـاج السـر، عثـمان – تاريـخ النوبـة الاقتصـادي الاجتماعـي – دار غـزة للنـشر والتوزيـع – 2004م.

الاوراق العلميـــــة:

- ابراهيـم، يحـي محمـد – «نفائـس المخطوطـات في السـودان» – ورقـة قدمـت في نـدوة المخطوطـات العربيـة في السـودان – قاعـة الشـارقة –ص ص1-38_2001م.
- ابومنقـة، الامـين محمـد –»رحـلات الحـج واثارهـا الاجتماعيـة والاقتصاديـة في سـودان وادي النيـل»- ورشـة عمـل عـن طريـق الحـج الافريقي-قاعـة الصداقـة-ص ص1-27-2006م.
- الياس1، احمـد حسـين-»صلح عبدالله بـن ابي الـسرح مـع مملكـة نوباتيـا عـام 31هـ -652م» – مجلـة حروف-العدد2-3مـزدوج-ص ص113-121-الخرطـوم-1991م.
- القمـر، ربيـع محمـد الحـاج «عبـد اللـه بـن أبي الـسرح لملـوك النوبـة 21هـ وأثـاره الاقتصاديـة» – مقـال في مجلـة دراسـات أفريقيـة – جامعـة أفريقيـا العالميـة – مركـز البحـوث والدراسـات الأفريقيـة –العدد17-ص141-168-يونيـو 1997م.
- سـعيد1، عبدالرحمـن ابراهيـم – «الآثـار الاسـلامية في اقليـم المحـس» – مجلـة اداب -محكمـة – مجلـة كليـة الاداب – جامعـة الخرطـوم – العـدد31-ص ص311-339 -2013م.
- شـكري، فيصـل –»المخطوطـات العربيـة والوثائـق والتخطيـط المسـتقبلي لحفظهـا وصيانتهـا والافـادة منهـا في التطـور الثقـافي العـربي»- ورقـة مقدمـة لنـدوة المخطوطـات العربيـة للتربيـة والثقافـة والعلـوم – الكويـت - ص ص177-211-1986م.
- عبدالوهـاب، ابوالنـور –» قضيـة الـتراث» – مجلـة الـدارة (سـعودية) – العـدد الاول – السـنة الخامسـة –ص ص180-201 – 1979م.
- عثـمان، عـلي «خواطـر حـول أصـول الثقافـة السـودانية (2) «مجلـة الثقافـة السـودانية – السـنة الرابعـة – العـدد 16- ص ص 39-45 الخرطـوم 1980م.
- عثـمان، عـلي «الثقافـة الماديـة لطريـق الحـج» –ورقـة قدمـت في ورشـة طريـق الحـج الافريقي-قاعـة الشـارقة-ص ص1-34-2006م.
- حسـين، حسـن- «اهـم مـدن وطـرق القوافـل في السـودان» –مقـال قـدم في ورشـة عمـل عـن السـياحة –قاعـة وزارة الثقافة والشـباب والرياضـة-ص ص1-9-2006م.
- مصطفـي، محمـد –»ملاحظـات اوليـة حـول: اسـتخدام الروايـات الشـفاهية كمصـدر لكتابـة التاريـخ السـوداني اسـطورة الغريـب الحكيـم نموذجـا» – مجلـة وازا – محكمـة –تصـدر عـن وزارة الثقافـة الاتحاديـة – مركـز تسـجيل وتوثيـق الحيـاة السـودانية – العـدد18 –ص ص53-74 – الخرطـوم- 2015م.

المقابلات الشخصية:

- بروفيسور علي عثمان محمد صالح (مدير مشروع المسح الآثاري والتراثي لمنطقة المحس) – قسم الآثار – جامعة الخرطوم – 2015م، 2016م.

المشاريع العلمية:

- ارشيف مشروع المسح الآثاري والتراثي لمنطقة المحس – قسم الآثار – جامعة الخرطوم -2014م.
- ارشيف مشروع المسح الآثاري في اقليم غرب دنقلا – قسم الآثار – جامعة الخرطوم.
- ارشيف مشروع المسح والتنقيب الآثاري لولاية شمال كردفان – قسم الآثار – جامعة الخرطوم -2015م.
- ارشيف مشروع سواكن والبحر الاحمر – قسم الآثار – جامعة الخرطوم -2015م.
- ارشيف مشروع المسح الآثاري والتراثي لمنطقة شمال المحس (المضيقين) – قسم الآثار – جامعة الخرطوم -2015م.

المراجع باللغات الاجنبية:

- Adams, W.Y1 1977: Nubia Corridor to Africa. London.
- ……..2 1997: "Castle House of Late Medieval Nubia", ANM .Vol.6, pp.11-40.
- Arkell, A. J 1949: The Old Stone Age in the Anglo Egyptian, Sudan Ascop – no 1, Khartoum.
- Crawford, O.G.S 1951: The Fung Kingdom of Sennar, Gloucester.
- De Villard, M 1935: La Nubia Medioevale, vol.1, Le Caire.
- Green Law, J.P 1976: The Coral building of Suakin, Leeds.
- Hassan, Y.F 1967: The Arabs and the Sudan, Edinburgh.
- Hinds.M & Hamdi.S 1986: Arabic Documents from the Ottoman period from Qasr Ibrim. London.
- Kirwan, L .P. & Emery, W. P 1938: The Royal Tombs of Ballana and Qustul (1929-1934). Cairo.

- Vail, J .R & Dawoud, A.S & Ahmed, F. 1973: Geology of the Third Cataract. Northern Province. Khartoum.
- Mac Michael, H.A 1922: A history of the Arabs in the Sudan, 2vol, Cambridge.
- Ofahey and Spaulding 1974: Kingdoms of Sudan, London.
- Soghayroun, I. 1 1982: The site of Sennar, un published BA honors dissertation, Dept of Archaeology, University of Khartoum.
- ……2 2004: Islamic Archaeology in the Sudan, BAR, CMAA, No.60. Oxford.
- Trigger, B. G. 1965: History and Settlement in lower Nubia, New Haven.
- مواقع بالشبكة الدولية للمعلومات (الانترنت):
www.arkamani.org